المكتبة الثقافية

١٣٦

الدكتور أحمد فؤاد الأهواني

الدار المصرية للتأليف والترجمة

أول يوليه ١٩٦٥



المكتبة الثقافية
١٣٦

المدارس الفلسفية

الدكتور احمد فؤاد الأهوانى

الدار المصرية للتأليف والترجمة

اول يولية ١٩٦٥

توزيع

مكتبة مصر

٣ شارع كامل صدقي - الفجالة - القاهرة

تليفون : ٩٠٨٩٢٠

الفلسفة والمجتمع

الانسان مدنى بالطبع ، يعيش فى مجتمع يتعاون أفراده على النهوض بحاجاته المختلفة ، ولا بد له من توفير بعض الحاجات الضرورية أقلها المأكل والملبس والمسكن والدفاع عن النفس من المخاطر . ومنذ ازمنة موغلة فى القـــدم يقدرها العلماء بما لا يقل عن عشرة آلاف عام قبل الميلاد ، ارتقى الانسان سلم الحضارة مع ابتكار الأدوات التى يستخدمها فى الطحن ، والطهو ، والنسج والطعن والنزال ، وتعقــدت هذه الأدوات شيئا فشيئا حتى ابتعد الانسان أشواطا بعيدة عن حالة الفطرة ، أو الحالة الحيوانية ، وأصبح لا يتيسر له أن يعيش الا اذا تعلم كيف يصنع هذه الأدوات والآلات ، وكيف يستخدمها ويسخرها فى تحقيق مصالحه .

ثم تناقلت الأجيـــال اللاحقة عن السابقة ما اكتسبته البشرية فى آلاف من السنين ، وأصبح «التعلم» و «التعليم» الوسيلة لنقل الحضارة من جيل الى جيل ، فكان التعلم عن طريق المحاكاة سبيلا غير مقصود لهذا الانتقال ، واضحى « التعليم » مرتبة أعلى فى الحضارة يدل على وعى المجتمع بأهدافه وغاياته التى يتجه اليها ويسعى الى بلوغها .

هذا التعليم المقصود الموجه الى غاية لا جرم يحتاج الى شعور بالغايات والىمعرفة بالطرق الموصلة الى هذه الغايات، مع تنظيم هـــذه الطرق واختيار أفضلها اصابة للغرض ، واكثرها استقامة الى بلوغ الهـــدف . ونهض جماعة من أصحاب الغيرة على مصالح قومهم ، يفكرون فى اقوم السبل الى التعليم ، وظهر فى كل أمة أفراد يعدون منها بمنزلة القادة ، كانوا يسمون غالبا بالكهان أو العرافين ، وأحيانا بالحكماء ، يرسمون لجماعتهم طريق السلامة والصـــلاح فى السياسة والأخلاق والاقتصاد والدين والفن والعلم .

وافترق الكهان أو الحكماء عن غيرهم بأمور ثلاثة : التميز بالمعرفة ، واحتكارها ، وصياغتها .

فقـــد شعر الكاهن أن علمه بالطب لعلاج الأبدان ، والسحر لتســـخير القـــوى الطبيعية أو تجنب ضررها وتخفيفها ، أكسبه سلطانا على الناس جعلهم يلجأون اليه كلما حزبهم أمر ، فيمنحهم التمائم والتعاويذ والأعشاب التى يتداوون بها . هذا السلطان جعله يشعر بالتميز عنهم ، والمنزلة فيهم ، ويبحث عن علة هذه المنزلة فرأى انها ترجع الى المعرفة ، فاقبل عليها ، واستزاد منها ، واحتفظ بها سرا لنفسه حتى يظل متميزا عن غيره .

ومن هنا نشأ احتكار المعرفة .

والمعرفة النظرية طريقها وعر ، محفوف بالأشواك ، لا بالورود والرياحين . انه طريق يحتاج الى الداب والمثابرة :

مع انعام النظر وادامة التأمل واستخلاص الفِكَر ، واستنتاج القواعد العامة من المشاهدات والتجارب ، ثم تطبيق القاعدة لمعرفة صحتها ، وتصحيحها اذا تبين فيها خطأ ، مما يحتاج الى زمن طويل قد لا يقاس بعمر الفرد ، بل بعمر اجيال وأجيال . ان ما بلغته البشرية اليوم من علم ومعرفة انما هو ثمرة الانسانية كلها منذ انبثاق فجر الحضارة ؛ انه تاريخ الفكر البشرى ، مرّ — ولا يزال — بمرحلتين ، مرحلة احتكار ومرحلة اباحة . ففى مرحلة الاحتكار يحتفظ فرد ، والأغلب بضعة أفراد قليلون ، بأسرار المعرفة التى اما أن يكون قد حصّلها بنفسه ، أو أخذها عن معلمه ، وحفظها عنه ، ليودعها تلميذا آخر ، وهكذا ، بحيث تتسلسل المعرفة فى أسرة معينة ، أو جماعة معينة ، جيلا بعد جيل . ولذلك كان هذا الضرب من التعليم سراً من الأسرار ، وكانت مدارسه سرية ، وتعاليمه « مستورة » أو « باطنية » . اما النوع الآخر فهو التعاليم المباحة المنشورة ، والتى يسمح للناس بمعرفتها . الا ترى الى مباحث الذرة والتفجير الذرى وصنع القنبلة الذرية والهيدروجينية كيف تحتفظ بها بعض الدول فى العصر الحاضر سراً من الأسرار . بل أيسر من هذا الا ترى كيف تحتفظ الشركات الصناعية « بسر الصنعة » حتى لا يزاحمها فى السوق أحد ؟ فلا عجب أن تنشأ فى القديم المدارس السرية وتحتكر المعرفة ومايتبعها من نفوذ وسلطان .

ولكن المعرفة تحتاج الى تعبير ، ويحتاج التعبير عنها

الى صياغتها فى ثوب من اللغة والعبارات حتى يمكن نقلها من شخص الى آخر . وقد بدأ التعليم شفاها ، أو بالاصطلاح الفنى « سماعاً » ، أى ما يسمعه التلميذ عن معلمه ، أو ما يسمعه الطفل من أهله فيحاكيهم . فلما اهتدى الانسان الى تسجيل الألفاظ والعبارات بالكتابة والتدوين ، أمكن الاحتفاظ بما اهتدى اليه من معرفة ، والرجوع اليه عند الحاجة ، وتامله ، والنظر اليه ، ومراجعته ، وتصحيحه ، والتقدم به خطوة الى الأمام . وأهم من ذلك كله فيما يعنينا الآن انه استطاع القيام بتعليم هذه الالوان من المعارف بطريق منظم ، وهو الطريق المعروف بالمدارس والتدريس . وأمكن أيضا أن يستقل التلميذ على البعد بالاطلاع على ما جاء فى هذه الكتب ، وأن يأخذ عنها بغير معلم سماعاً ، ولو أن طريق السماع أولى وآثر واكثر فائدة .

ويتبين من هذا الاستعراض السريع للحضارة البشرية أن قيام المدارس انما نشأ فى عصر متاخر نسبيا فى تاريخ هذه الحضارة ، يمكن أن يحدد على وجه التقريب بالقرن السادس قبل الميلاد من جهة الزمان ، وفى بلاد اليونان من جهة المكان . وليس معنى ذلك انه لم تنهض مدارس قبل ذلك فى بقاع اخرى من الدنيا المتحضرة ، وبخاصة فى أرض مصر التى كانت نبراساً اهتدى به اليونانيون . فنحن نعرف أن قدماء المصريين باعتراف اليونانيين انفسهم ـ كما سجل ارسطو فى أول كتاب الميتافيزيقا قائلا : ان فلاسفة الاغريق

أخذوا عن المصريين علم الهندسة ـ كانوا أصحاب حضارة عريقة تمتد اكثر من اربعة آلاف سنة قبل الميلاد ، وانهم برعوا فى علوم الفلك والرياضيات والطب والكيمياء ، الى جانب تقدمهم فى الفنون والآداب كالموسيقى والتصوير والنحت والبناء . ولا نزاع فى أن تقدم هذه العلوم والفنون ذلك التقدم العظيم انما اعتمد على تعليم منظم ينقله المعلم الى تلاميذه عن قصد ووعى . غير أن ذلك التعليم نشأ فى أحضان الدين ، وفى ابهاء المعابد ، وعلى أيدى الكهنة . وقد احتفظ الكهنة بتلك المعارف لأنفسهم وجعلوها من جملة أسرارهم . بل ان بعض العلوم التى استقلت عن الدين كالهندسة والبناء ، ظلت محصورة فى طوائف معينة يتوارثها الأبناء عن الآباء ، كما كانت الحال فى سائر المهن والحرف والصنائع الأخرى . ولم يخرج قدماء المصريين من معارفهم الى النور سوى المبادىء الأولية الضرورية لكل صغير ، مثل الحساب والهندسة العملية ، وبقيت المعارف الراقية العالية محجوبة عن الانتشار .

وقد استطاع بعض المفكرين من قدماء الاغريق فى القرن السادس قبل الميلاد الوصول الى تلك المعارف ، والاتصال بالكهنة فأخذوا عنهم آخر ما انتهى اليه العلم المصرى ، ونقلوه الى بلادهم وأذاعوه ، وسموا المعرفة الجديدة التى ابتدعوها « فلسفة » ؛ فكانت هذه الصناعة الفكرية لفظاً ومعنى بضاعة اغريقية ، باعتراف الغرب والشرق على

السواء ، ولا يزال اسم الفلسفة دليـلا قاطعا على هذه النسبة . أما أولئك المفكرون الذين وفدوا الى أرض مصر ينهلون من مائها شرابا يروى الأبدان ، ومن معارفها أنوارا تضىء النفوس والأرواح ، وتغذو الأذهان والعقول ، فانهم عدد كبير سجل لنا التاريخ بعض أسمائهم ، يكفى أن نذكر منهم طاليس ، وفيثاغورس ، وأفلاطون ، وقد أنشأ كل منهم بعد عودته من رحلته مدرسة فلسفية ، تختلف كل منها عن الأخرى شكلا وموضوعاً ومكانا ، ولكل منها اثر بالغ فى تاريخ الفكر من جهة ، وفى التأثير على المجتمع من جهة أخرى .

فقد يبـدو لكثير من الناس فى الوقـت الحاضر أن الفلسفة ، هذه الصناعة الجديدة التى ظهرت مباينة للدين والعلم على السواء ، مهمة بعيـدة كل البعد عن الحياة الاجتماعية ، وأن المشتغلين بها قوم انعـزلوا بانفسهم مع أفكارهم وأوهامهم وأحلامهم ، ثم طلعوا على الناس بهذه الأفكار الغريبة الغير المألوفة . وهذا باطل ، ووهم شائع انتشر عند الجمهور فى العصور المتأخرة التى تدهورت فيها حال الفلسـفة ، وامست بعيدة عن الحياة ، منعزلة عن مطالب المجتمع .

***

فاذا رجعنا الى الماضى البعيد فى القرن السادس قبل الميلاد ، وهو وقت ظهور الفلسفة ، رأينا أن طاليس كان

متصلا اتصالا وثيقا بحاجات المجتمع فى عصره ، وان فلسفته قامت لخدمة مصالح قومه . نشأ فى مدينة ملطية احدى ثغور آسيا الصغرى ، وهو أحد الحكماء السبعة ، وكان يؤخذ رايه فى سياسة المدينة . وقد خدمت اختراعاته الفلكية الملاحين ، ويقال انه وضع تقويما فلكيا يعد أقدم ما عرف من نوعه بين فيه أوجه القمر ، وحركة الاعتدالين ، والتنبؤ بحالة الطقس . ولما كان معظم أهل ملطية من البحارة والتجار الذين يخرجون الى البحر فى سفنهم يطوفون بثغور البحر الأبيض للتجارة ، فان مثل ذلك التقويم لا جرم يخدم المجتمع الذى نشأ فيه خدمة جليلة . ثم ان طاليس لم يكن بعيدا عن المشاركة فى السياسة ، فهو الذى نصح المدن الأيونية بالاتحاد للوقوف فى وجه خطر الفرس . وهكذا كانت الفلسفة فى خدمة المجتمع سياسيا واقتصاديا ، وكان الفلاسفة على صلة وثيقة بحاجات المجتمع الذى يعيشون فيه .

وكذلك كان حال فيثاغورس الذى ازدهر بعد نصف قرن من طاليس ، والذى هجر موطنه الأصلى فى ساموس فراراً من حكم طاغيتها بوليقراطس ، وزار مدن الشرق ، واستقر فى مصر زمنا طويلا ينهل من معارفها ويدرس فيها الفلك والهندسة والعقائد ، وأخيرا استقر فى مدينة كروتون بجنوب ايطاليا ، حيث أسس مدرسته المشهورة التى سنفرد لها حديثا خاصا فيما بعد . شارك فى السياسة التى

جرفته تياراتها ، وجنت على فرقته وقضت على عدد كبير منهم . ولكن اتجاه فيثاغورس ومدرسته كان الى الدين والأخلاق اكثر منه اتجاها سياسيا ، فكانت مشاركته للمجتمع وسعيه الى التقدم به عن ذلك الطريق الدينى الأخلاقى . أما طاليس ومدرسته فكانت عنايته بالعلم والنظر فى الطبيعة ، واثمرت مباحثه العلمية فى ترقية المجتمع من هذا السبيل . وهكذا نرى أن الفلسفة اتجهت منذ القديم وجهتين رئيسيتين كل منهما تحاول التقدم بالبشرية ، احداهما علمية تجريبية ، والأخرى اخلاقية ، والتقت الوجهتان فى بعض الأحيان عند بعض الفلاسفة وبخاصة الشوامخ منهم . ويؤيد تاريخ المدارس الفلسفية ما نذهب اليه مما سيتبين عند الحديث عن هذه المدارس . ولكنها على اختلافها وتعددها انما كانت تعكس حاجات المجتمع وتعد مرآة تصور ما يقوم عليه المجتمع من نظم وقوانين وشرائع ، وما يسوده من آداب وفنون وعلوم ، بحيث يتسنى للمواطن أن يفهم طبيعة الحياة فى المجتمع الذى يعيش فيه ، ويترتب على هذا الفهم التمكن من الاندراج فى عجلة هذه الحياة مسهما فى تسييرها لا فى تعطيلها .

ولكن المدارس الفلسفية لم تقف عند تحليل النظم الأجتماعية ومحاولة فهمها الا لكى تعمل على رسم خطوط جديدة لمجتمع أفضل بابتداع أنظمة جديدة تعمل على تطوير المجتمع وترقيته . ولو أنها قنعت بمرحلة

الفهم والتسجيل ما كانت مدارس فلسـفية جديرة بأن تحمل هذا الاسم . وفى المدارس العادية كفاية فى القيام بهذه المهمة . اما المدارس الفلسـفية فلأنها بحكم وظيفتها من الهداية والارشـاد ، فهى تقوم بدور القيادة الفكرية التى تأخذ بيد الأمة الى الأمام .

وليس معنى ذلك أن كل المـدارس الفلسفيه كانت مجددة فى الفكر ، يتعمق أصحابها فى البحث ، ويشاركون فى الاحساس بمطالب المجتمع ويعملون على رفاهته وتنميته ، اذ تصـاب المدارس بما يصيب كل كائن حى من شيخوخة وما يصحبها من جمود وتهدم واندفاع نحو الفناء . وقد نشأت مدارس ثم ماتت ، وبقى بعضها واستمر يعيش على تعليم كتب القدماء وشرحها أو تلخيصها .

***

مر بنا أن المدارس الفلسفية لم تنشأ الا فى بلاد اليونان فى القرن السادس قبل الميلاد . وكان بعضها يتخذ للتعليم مقرا ثابتا ، وينزل فى دار محـددة ، على حين لا يتقيـد بعضها الآخر بمقر ثابت أو دار معروفة ، وانما يأخذ التلميذ عن أستاذه مباشرة ثمرة لزومه وصحبته . وهذا النوع الأخير كان يقتصر فى الأغلب على تلميذ واحد ، مثل طاليس وتلميذه انكسمندريس، ثم انكسمانس تلميذ انكسمندريس، ويعرف هؤلاء بالمدرسة الأيونيـة نسبة الى أيونية ، أو

الملطية نسبة الى مدينة ملطية ، أو الطبيعية لأنها اتجهت فى بحثها الى الطبيعة . وليست هذه التلمذة تلمذة تلقين بل تلمذة صحبة ، كما نقول ان الشيخ محمد عبده تلميذ جمال الدين الأفغانى ، نعنى أنه صحبه ، واصبح صاحبه ، واعجب بتعاليمه وصادفت هوى فى نفسه ، فأخذها عنه وأذاعها ، وقد يتطور بها ويحورها . وكانت هذه التلمذة التى هى ثمرة الصحبة شائعة فى بلاد اليونان ، فكان زينون تلميذ بارمنيدس وصاحبه ، كما كان أفلاطون تلميذ سقراط .

ومن الواضح أن هذه المدارس التى لم تتقيد بمكان ، ولا بتعليم منظم وبرنامج محدد ، كانت موقوتة بزمان أصحابها ، على حين أن المدارس التى اتخذت دورا للتعليم مثل الأكاديمية أو اللوقيون استمرت زماناً طويلا ، وتتابع عليها التلاميذ ، واستمرت تؤثر فى تيار الفكر المحلى والعالمى على السواء . وما بالك بمدرسة تستمر قائمة تسعة قرون من الزمان ، نعنى المدرستين اليونانيتين الكبيرتين الأكاديمية والمشائية .

***

ومن الطبيعى والمدارس الفلسفية بهذه الوفرة الا يتسع لذكرها كلها هذا الكتاب الصغير ، وفضلا عن ذلك فان الاحاطة الشاملة تخرج عما قصدنا اليه وتجعل البحث

تاريخا للفلسفة ، وتاريخا للفكر . حقا لا يمكن لمن يرغب فى الحديث عن المدارس من حيث بناؤها وفصولها والنظام الذى تجرى عليه فى حياتها التعليمية الا ان يتعرض للمذهب الفلسفى الذى تنادى به هذه المدرسة أو تلك ، غير أن التوسع فى ذكر المذهب يبعد بنا عن القصد .

لهذا كله لن يتسع المقام الا للحديث عن بعض المدارس ، وبخاصة الكبرى منها ، وما كان ذا صلة وثيقة بالحضارة العربية ، مع العناية بذكر المدارس الفلسفية العربية التى تعد جزءا من تراثنا .

الفيثاغورية

أعجب مدرسة فلسفية هى المدرسة التى انشأها فيثاغورس فى مدينة كروتون بجنوب ايطاليا فى القرن السادس قبل الميلاد . فهى عجيبة فى تكوينها ، وعجيبة فى تعاليمها ، وعجيبة فى أثرها .

وأول مظاهر العجب أنها تسمى الفيثاغورية ، ولا يقال مدرسة فيثاغورس . والفرق بين التسميتين كبير ، لأن مدرسة فيثاغورس تنسب الى شخص صاحبها ، وتنقضى بوفاته . أما الفيثاغورية فانها على الرغم من انتسابها الى فيثاغورس الا أنها تتجاوز شخصه الى جماعة الفيثاغوريين ، فالمدرسة فى حقيقة أمرها تخضع لهيئة من القادة على راسهم فيثاغورس ، وهذا هو السر فى أن المدرسة لم تنقرض بموت رئيسها . وأيضا فان فيثاغورس نفسه تلفه غلالات من الغموض والأساطير ، مما جعل كثيرا من المؤرخين يشكون فى وجوده .

ولسنا نغالى غلو هؤلاء المؤرخين ، فلا بد أن فيثاغورس كان شخصية حقيقية على الرغم من نسيج الخرافات الذى

تراكم حول سيرته . وقد كان القرن السادس كله عصر هزات واضطرابات وانقلابات فكرية فى شتى انحاء العالم المعروف . انه عصر كونفوشيوس وبوذا وزرادشت . وهو العصر الذى ظهرت فيه الفلسفة اليونانية على يد حكماء اليونان . وأدت يقظة الشرق الشديدة الى الضغط على آسيا الصغرى وعلى مصر التى احتلها قمبيز فترة قصيرة من الزمن . اما بلاد اليونان فقد انتقل مفكروها من آسيا الصغرى الى جنوب ايطاليا ، ومنهم فيثاغورس . وكان الاغريق يعدون كل بلد ينزلون فيه جزءا من وطنهم ، فالمدن التى انشئت فى جنوب ايطاليا ، وصقلية ، وشمال افريقية ، ومصر ، كلها مدن اغريقية ، يتكلم اهلها اللغة اليونانية ، ويسيرون فى الحكم على النظام اليونانى ، فضلا عن اصطناع الشعر والتمثيل والأدب المأثور عن اليونانيين . فلا غرابة أن تنشأ مدارس فى معظم تلك المدن على نسق ما كان معروفا فى الوطن الأم .

ولكن مدرسة فيثاغورس كانت بعيدة عن الروح الاغريقية الأصيلة ، غريبة عن تراث آلهة أوليمبوس وما اثر عن اربابها من حكمة ترجع الى العقل ، وغريبة عن ديونيسوس اله الخمر وما عرف عنه من اندفاع مع الهوى والعاطفة والخيال ، فقد جلب فيثاغورس تعاليمه من الشرق الذي طاف بأرجائه ، ففيه ديانة جديدة جاءت من طراقيا

مع الإله أورفيوس ، وفيه نزعة الى الزهد لا تتفق مع النزعة الديونيسية بوجه خاص .

ويحيط الغموض بشخصية أورفيوس ، فهو الاه ، او نبى ، أو شاعر ، أو موسيقار يفتن بموسيقاه الكائنات من شتى الأصناف . وللنحلة الأورفية رأى فى أصـــل العالم وحقيقة الانسان . ففى البدء كان الزمان ، ونشأ عن الزمان الأثير والعماء ، وشكل الزمان بيضة فى الأثير تفتحت فخرج منها النور ، وانفلقت نصفين اصبح احدهما السماء والآخر الأرض . وتزوجت جايا (الأرض) أورانوس (السماء) فأنجبا ثلاث بنات وستة بنين . ولكن أورانوس ألقى بالأبناء فى نهر تارتاروس حين علم بأن أبنـــاءه سيقضون عليه . وغضـــبت جايا فأنجبت التيتان وهم مردة جبـــابرة ، وكرونوس ، وريا ، وأقيانوس ، وتيش . وتمضى الأسطورة فتصور لنا كيف ولد ديونيسوس من زيوس ، ثم خطف التيتان الطفل واكلوه ، وكيف أعاد زيوس ديونيسوس الى الحياة مرة ثانية ، وكيف سلط على التيتان البرق والرعد فأحرقهم وجمع رمادهم وخلق منهم الانسان فأصبح بذلك مركبا من طبيعتين ، طبيعة التيتان وهى طبيعـــة الشر والاثم ، وطبيعة ديونيسوس وهى طبيعة الهية سامية .

واصطنعت الفيثاغورية النحلة الأورفيـــة وبخاصة نظريتها فى النفس ونزعتها السرية .

وحين افتتح فيثاغورس مدرسته اجتذبت عددا كبيرا

من الأتباع ، قيل أن عددهم بلغ ما يقرب من عشرة آلاف . وهو عدد ليس ثمرة الاحصاء ، ولكنه ظن وتخمين ، لأن العدد المثالى للمدينة الاغريقية كان ذلك العدد . ومع ذلك فليس من المستغرب أن تبلغ المدرسة هذا العدد لأنها كانت تشمل الرجال والنساء على السواء . نقول مدرسة تجوزا ، لأنها كانت أشبه بفرقة دينية ، ونظام من الأخوة ، قريب من الفرق الصوفية التى انتشرت فى الاسلام .

والمدرسة الى ذلك كانت ذات وجهين : أحدهما رياضى والآخر أخلاقى ودينى . أما الجانب الرياضى فلم يكن يصلح لهذا العدد الكبير من الطلبة بطبيعة الحال ، بل كان مقصوراً على قلة قليلة من الخاصة . ومعنى ذلك أن المدرسة ولو أنها كانت كلها سرية الا أنها كانت تقدم دروساً للخاصة ، فى العلوم الرياضية ، وأخرى للجمهور فى الدين والأخلاق . وقد بقى هذا التقليد سائداً فى كثير من المدارس الفلسفية ، وسنجده عند ارسطو الذى كان يلقى دروساً للخاصة فى الصباح واخرى للجمهور فى المساء . وهذه التعاليم الخاصة هى التى كانت تحجب عن الجمهور ، وتسمى بالتعاليم المستورة ، ويسميها الغزالى : المضنون به على غير أهله .

ومن الطبيعى أن تكون الرياضيات التى علمتها الفيثاغورية فى القرن السادس قبل الميلاد ساذجة بدائية تمثل أول درجة من درجات هذا « العلم » . نقول « العلم » ، ونعنى بذلك الفرق بينه وبين المعرفة العملية التجريبية ،

لأن الانسانية لم تبلغ المرحلة العلمية بمعنى الكلمة الا بعد أن مرت مئات بل آلاف من السنين تقتصر على المعرفة التجريبية القائمة على الحس . والرياضة من حساب وهندسة كانت أول العلوم التى اهتدى الانسان اليها ، وذلك على يد فيثاغورس وشيعته . ولم يكن الحساب قد انفصل عن الهندسة ، لأن الحساب وهو علم العدد كان يصور على هيئة أشكال هندسية . فقد كان علماء ذلك الزمان يستخدمون « لوح المعداد » وهو لوح يملأ بالرمل ويخط عليه الأشكال المطلوبة ، وبالنسبة للحساب يستخدم الحصى أو البلى ويوضع وضعاً هندسيا ، اى أن حصاة واحدة تدل على نقطة ، واثنتان موضوعتان جنبا الى جنب هما الخط ، وثلاث حصوات مثلث ، واربع مربع ، وهكذا ، ومن هنا قالوا بالأعداد المثلثة والأعداد المربعة .

وقد وجدوا فى الأعداد خصائص عجيبة عند جمعها وطرحها وضربها وغير ذلك من العمليات . مثال ذلك أن مجموع مربعى العددين المتواليين ٣ ، ٤ يساوى مربع العدد التالى لهما وهو ٥ ، أى ٩ + ١٦ = ٢٥ ، وهذه الخاصية العددية هى التى طبقت فى الهندسة فى نظرية فيثاغورس المشهورة القائلة بأن مجموع مربعى ضلعى المثلث قائم الزاوية يساوى مربع الوتر ، فاذا فرضنا أن طول أحد الضلعين ثلاثة والآخر أربعة كان طول الوتر خمسة . وليس المهم الكشف

عن صحة هذه النظرية ، أو المسألة الهندسية بطريقة عملية ، وانما المهم « اثبات » صحتها « بالبرهان » الرياضى ، اى نظريا لا عمليا . وكان فيثاغورس يعلى من شأن «النظر» على العمل ، وهو صاحب قسمة الناس هذه القسمة المشهورة الى نظار وجمهور ، فالجمهور هم جملة الناس وجمهرتهم المشتغلون بأمور الدنيا والمعاش من زراعة وتجارة ومهن اخرى يزاولونها بأيديهم ، أما « النظار » فانهم لا يشاركون فى هذه الأعمال ولكن « ينظرون » أى يتفرجون من بعيد على الذين يعملون . وقد استمر هذا التقليد الذى يفصل بين النظر والعمل من جهة ، ويعلى من شأن النظر على العمل من جهة أخرى فى الفلسفة اليونانية كلها ، اخذ به افلاطون ثم أرسطو ، وانتقل هذا التراث الى العرب عند نقل الفلسفة اليونانية ، واخذت به أوربا بعد عصر النهضة والعصر الحديث ، ولم يبدأ يتغير هذا المبدأ الفيثاغورى الا فى هذا القرن العشرين .

ويرجع بنا الحديث الى الرياضيات فنقول : ان ما يخيل الينا اليوم من مسائل حسابية وهندسية فى غاية البساطة ومما يدرسه الصبيان فى سن متقدمة بالمدارس كان فى ذلك العهد فى غاية الصعوبة ولا يقوى على فهمه وادراكه الا قلة قليلة جدا هم الفلاسفة . ونحن لا نعرف كم كان عدد هذه الحلقة من الخاصة الملتفين بفيثاغورس لطبيعة السرية التى ضربت حول التعاليم الرياضية ، الى درجة أن

أي واحد يفشي هذه التعاليم كان يعاقب بالطرد . واختلفت الآراء في أمر ذلك الذى أفشى هذه التعاليم الرياضية ، فقيل انه « فيلولاوس » وكان فيثاغوريا كتب كتابا من ثلاثة أجزاء اشتراه ديون حاكم سراقوسة بصقلية حسب طلب أفلاطون، فتيسر بذلك أن يطلع أفلاطـــون على آراء فيثاغـــورس الرياضية . ولكن هذه الرواية ينقضها ما كان يعرفه سقراط من أتباع الفيثاغوريين ، وبخاصة أن أفلاطـون نفسه كان يعرف صلة سقراط بهؤلاء الأتباع مما نجده مدونا فى أول محاورة « فيدون » . والأرجح أن الذى أفشى تعاليمهم هو « هيباسوس » الذى دوّن هذه التعاليم فى كتاب ، وكان ذلك فى حياة فيثاغورس نفســـه ، وعوقب لهذا السبب بالطرد من الفرقة الفيثاغورية .

ولم تكن الفيثاغورية مدرسة بمقدار ما كانت فرقة تقوم على نظام من الأخوة ، وكأنها دير أو معبد . وكان جميع أفرادها يعيشون معيشة زهد وبســـاطة ، ويلبسون زياً موحدا وهو البياض ، ولا ينتعلون بل يمشون حفاة الأقدام . وقد سبقت الاشارة الى أن سقراط كان من جملة اتباعهم ، فلا غرابة أن يسلك مسلكهم ، فكان يمشي حافى القدمين .

والفيثاغورية أول مدرسة فتحت ابوابها لتعليم المرأة ، وبذلك قررت الفيثاغورية مبدأ مساواة المرأة بالرجل قبل أن يقرره أفلاطون فى جمهـــوريته بقرنين من الزمان . ومن الغريب أن افلاطون على الرغم من المنـــاداة بالمساواة بين

الرجـل والمرأة لم يؤثر عنه انه فتح أبواب الأكاديمية لأى امراة . وعلى العكس كانت هناك مدارس فلسفية فى اليونان ضمت نساء الى جانب الرجال مثل مدرسة ابيقور .

ان تحرير المرأة مرتبط ارتباطا وثيقا بتعليمها . ولم تستطع المرأة أن تظفر بالتعليم العالى الا منذ أواخر القرن التاسع عشر وأوائل هذا القرن فقط . أما قديما فلم تظهر الا محاولات كانت أشبه بومضات لا تكاد تبرق حتى تختفى ، ولم يقدر لها الاستمرار . ولهذا لم يذكر التاريخ امرأة كانت صاحب مذهب فلسفى ، أو عالمة بالرياضيات أو الطبيعيات ويبدو ان رأى سقراط فى المرأة من جهة تعلمها الفلسفة كان سيئاً ، فقد ذهبت زوجته بصحبة أبنائهما الى السجن تزوره قبل اعدامه ، ولم تكد تراه حتى أخذت تولول وتصيح ، فقال لرفقائه : اخرجوا هذه المرأة . ونحن نجد هذا الحديث مسجلا فى أول محاورة « فيدون » .

وقد اشتهرت المرأة الفيثاغورية بالعفة والفضيلة ، وانها أفضل نساء الاغريق . والعلة فى ذلك انها تعلم الادب وبعض مبادىء الفلسفة ، كما كانت تعلم تدبير المنزل والأمومة . ان اشتراك المرأة مع الرجل على هذا النطاق الواسع جعل المدرسة الفيثاغورية شيئاً أشبه بمجتمع مثالى أو مدينة فاضلة . وكانت المدن الفاضلة الشغل الشاغل لفلاسفة اليونان ، حتى ليمكن القول ان هدف الفلسفة صياغة المجتمعات المثالية أو المدن الفاضلة ، كما

هى الحال فى جمهورية أفلاطون . ولكن معظم المدن الفاضلة كانت من قبيل « الطوبيات » تصورها أصحابها فى الخيال ، ولم تطبق عمليا بالفعل ، فيما عدا بعض المدن الفاضلة القليلة ، ومنها مدرسة فيثاغورس .

واذا كانت الفيثاغورية قد قبلت هذا العدد الكثير من الأتباع والمريدين فان التعاليم التى كانت تقدم لهم هى تلك الخاصة بالدين والأخلاق لا بالعلوم الرياضية . وقد عرفنا ان النحلة التى آمنوا بها هى الأورفية . والأولى أن الفيثاغورية لم تتعصب لديانة بعينها ، بل أخذت من كل ديانة بطرف ، وبذلك عمل فيثاغورس على التوفيق بين الأديان المختلفة فأخذ من طقوس بابل ومصر وتراقيا وعقائد اليونانيين الى جانب الأورفية . وقد ظلت هذه النزعة التوفيقية مصاحبة للفيثاغورية على مدى حياتها . وعندما ظهرت الفيثاغورية الجديدة بالاسكندرية فى القرون الثلاثة الأولى بعد الميلاد امتازت بهذه النزعة التوفيقية ، وبخاصة بعد ظهور المسيحية . حتى اذا انتقلت الفيثاغورية الى العرب فى القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) ، لازمتها هذه السمة مما نجده واضحا فى رسائل « اخوان الصفا وخلان الوفا » فان أصحابها كتموا اسماءهم ، وزعموا أن تعاليمهم سرية ، وبدءوا رسائلهم بعلم العدد ، كما دعوا الى الزهد وتطهير النفس .

ان بلوغ السعادة القصوى لا يتم الا بتطهير النفس .

ويقوم هذا التطهير على عدة مبادىء ومعتقدات ، على رأسها الاعتقاد فى انفصال النفس عن الجسد ، وسمو النفس وتعاليها على البدن ، وبقائها بعد فنائه . ثم الاعتقاد بتناسخ الأنفس . ثم اتباع طريق الزهد والرياضة لتصفية النفس وتطهيرها .

سادت فكرة التناسخ عند الفيثاغوريين بعد انتقالها اليهم من فلسفات الهند ومن الأورفية . وكان فيثاغورس — فيما يروى — مؤمنا أشد الايمان بهذه العقيدة ، ويقال انه رأى شخصا يضرب كلبا يعوى ، فأوقفه عن ضربه لأنه عرف من صوت الكلب أنه أحد أصدقائه الذين ماتوا وتناسخت روحه فى هذا الكلب . وتبعا لهذه العقيدة فان صاحب الأعمال الصالحة فى حياته الدنيا تحل نفسه عند الموت فى جسد شخص صالح ، وأن صاحب الأعمال الطالحة تحل نفسه فى جسد حيوان . وهذه هى السعادة والشقاوة فى نظرهم .

كانت هذه الآراء شائعة فى مدرسة فيثاغورس ، وكشف أفلاطون عنها فى محاورة « فيدون » التى يتحدث فيها عن خلود النفس . وكان سقراط يدين بالفيثاغورية ولكنه أخذ يفكر فى مبلغ ما فى هذه الآراء من صواب ، فقبل بعضها ورفض بعضها الآخر ، قبل رأيهم — أو رأى النحلة الأورفية — فى أن البدن سجن للنفس ، ولكن ليس على المرء أن يفر من هذا السجن بالانتحار ، لأننا أشبه بالقطيع الذى يملكه الراعى ، ولا تملك الخروج على أمره . ولا بد للمرء أن

يمضى فترة العقوبة مسجونا فى هذا البدن . غير أن سقراط رفض فكرة التناسخ ، على الرغم من قبوله فكرة التطهير .

ان فكرة « التطهـــير » التى بدأت منذ فيثاغورس ومدرسته فى القرن السادس قبل الميلاد ، تقلبت فى أدوار مختلفة ، واتخذت اشكالا متباينة عنـــد سقراط وافلاطون وأرسطو فى الزمن القديم ، حتى اذا بلغنا العصر الحاضر رأينا مدرسة التحليل النفسانى ، ونعنى بهـا مدرسة فرويد ، تعتمد فى العلاج على فكرة التطهير (Catharsis) . والهدف من التطهير الفيثاغورى هو التخلص من « عجلة الميـلاد » أى التخلص من التناســخ فى بدن حيوان ، وبذلك يظل المرء يشقى طول مدة التناسخ ، ويخرج من شقاء الى شقاء . ولم يكتف فيثاغورس لتحقيق التطهير باتباع قواعد معينة فى الطعام والقيام بعبادات منظمة معينة على أيدى الكهنة ، ولكنه أضاف الى الزهد والعبادة شيئا جديدا هو ممارسة العلم الرياضى والموسيقى لتصـــفية النفس ، كما يستخدم الدواء لتصفية الجسم . ومن المعروف أن فيثاغورس رفع الموسيقى من المرتبة العملية فأصبحت علما نظريا ، فأضحت علم التناسب ، واقامها على سلّم يتميز بطول النغمـات عدديا . وبذلك ارتفع فيثاغورس بالتطهير من مجـرد نزعة عملية الى مرتبة نظرية . وقد اتبع سقراط وافلاطون هذه الطريقة فى التطهير ، فكانا يجمعان بين الزهد والسيرة الفاضلة وبين اكتساب العلوم الرياضية وبخاصة الهندسة . وكان

افلاطون يكتب على باب مدرسته : « من لم يكن مهندساً فلا يدخل علينا » . واستفاد أرسطو من طريقة التطهير فى الفن ، فالتراجيديا بما فيها من مواقف تبعث على الخوف والرعب والشفقة وغير ذلك ، تجعل المتفرج يتقمص هذه المواقف وينفعل بهذه الانفعالات ، فتخرج من باطن نفسه ، ويتطهر منها . وروى أن بعض المرضى العصبيين كانوا يعالجون فى القرن الرابع قبل الميلاد بالطريقة الفيثاغورية ، وبخاصة بواسطة الموسيقى .

والمدرسة الفيثاغورية عظيمة الأثر فى تاريخ الفكر الفلسفى . ذلك أن التفسير الرياضى للكون كان سائداً حتى زمان افلاطون ، الذى اشترط أن يتعلم الطالب الهندسة قبل أن يتعلم الفلسفة . والعلة فى ذلك أن الرياضيات علوم يقينية ، مضبوطة ، مستمدة من العقل ذاته لا من الخارج . واساسها البديهيات الفطرية فى العقل ، والتى لا تحتاج الى برهان ، وانما يكفى مجرد تصورها للاعتقاد فيها . مثال ذلك بديهية المساواة وبديهية الكبر والصغر ، أى ان الأشياء المساوية لشىء واحد متساوية ، وأن الكل اعظم من الجزء . وقد بيّن افلاطون فى محاوراته أن الخادم الذى لم يتلق أى تعليم يستطيع ان يدرك هذه الحقائق البديهية من ذاته ، مما يدل على أنها مفطورة فى العقل . وقد استمر هذا التيار الذى يعتقد فى فطرية البديهيات الرياضية منذ زمان افلاطون حتى ديكارت وكانط ورسل فى الوقت الحاضر .

ولكن فى نفس الوقت الذى ظهر فيه هذا التيار الرياضى عند فيثاغورس ، ظهر ايضا تيار آخر يفسر العالم تفسيرا طبيعيا ، اما بمادة واحدة كما كانت الحال عند طاليس ، او انكسمندريس ، او انكسمانس . وقد انتهى الأمر بهذا التيار الطبيعى عند ارسطو الى تفسير الموجودات بأنها مركبة من هيولى وصورة ، الى جانب رد العناصر الى اربع اساسية هى النار والهواء والماء والأرض . وقد سيطر التفسير الأرسطاليسى على العالم حول عشرين قرنا من الزمان ، الى أن عاد العالم مرة اخرى الى التفسير الرياضى للموجودات ، لا على نحو ما كانت تفسر قديما بل بمعادلات رياضية .

ان الذى وجه الدراسات هذا التوجيه الرياضى هو فيثاغورس ، ولذلك لم يكن من الغريب أن يقول برتراند رسل فى كتابه تاريخ الفلسفة الغربية : « انى لا ارى شخصا غير فيثاغورس كان له أثر يماثله فى عالم الفكر ، لأن ما يبدو لنا أفلاطونيا نجده فى جوهره عند التحليل فيثاغوريا » .

الأكاديمية

اشهر مدرســـة فلسفية فى التاريخ القديم ، وأطولها عمراً ، فقد انشئت فى أثينا زمان افلاطون فى القرن الرابع قبل الميلاد ، وظلت تقوم بتدريس الفلسفة حتى النصـــف الأول من القرن السادس بعد الميلاد ، عندما أغلق الامبراطور جستنيان أبوابها . ومع ذلك لم تمت باغلاقها ، بل استمرت تعيش بعد أن هاجر فلاسفتها أثينا ، وذهبوا الى فارس حيث رحب بهم كسرى انو شروان ، وأنزلهم فى مدينـة جنـــديسابور .

ولا تزال الأكاديمية حية باسمها فى جميــــع اللغات ، فالأكاديمية عنوان على نوع خاص من معاهد البحث العالى ، وهى تطلق فى الأغلب على العلوم أكثر مما تطلق على الفنون والآذاب . والصفة من الأكاديمية ، أى الأكاديمى ، تدل على المفكر المتعمق فى البحث مع الجدة والأصالة .

وقد تيسر للأكاديمية هذا الاستمرار المتصل على مر الزمان بفضل النظام المحكم الذى وضـــعه لها مؤسسها أفلاطون .

فقد كانت هناك قبل انشاء الأكاديمية مدارس فى اليونان ، كما كانت هناك مدارس فى الشرق القديم . وقد أشرنا الى الفيثاغورية التى ظهرت قبل ذلك بقرنين من الزمان ، كما أشرنا الى مدارس الطبيعيين . وفى القرن الخامس ظهرت مدارس السفسطائيين وكانت تلك المدارس تؤدى وظيفة معينة هى تعليم الخطابة والبيان ، فكانت بذلك تعد اليونانيين لتولى الوظائف العامة التى ظهرت مع ظهور الديمقراطية .

ان المدارس لم تكن تظهر الا لحاجة ماسة ، فهى تخرج الحكام والساسة اذ كانت مشكلة الحكم هى الشغل الشاغل للأذهان . أو انها تعد الطلاب لشغل وظائف الكهنة وخدمة المعابد وذلك بفهم أسرار الدين ، ومعرفة مراميه ، ووظيفته فى خدمة المجتمع . أو انها تعد الطلاب لأمور الدنيا من معرفة بالحساب والتجارة والاقتصاد وغير ذلك . ولكن مدارس السفسطائيين كانت مختلفة فى وظيفتها عن هذه الاتجاهات الثلاثة ، ولم تكن تعلم الحق بمقدار ما كانت تعلم التغلب على الخصوم . ومن أجل ذلك نهض أفلاطون ينشىء الأكاديمية يعارض بها تعليم السفسطائيين .

ومن الغريب ان سقراط الذى لم يؤثر عنه انه كان صاحب مدرسة قد صوره أرستوفان الشاعر الهزلى المشهور فى تمثيلية السحب صاحب مدرسة يعلم الشباب

الجدل بالحق وبالباطل ، ولكن هذا التصوير الكاريكاتورى لا يتفق مع الحقيقة ، لأن سقراط أفنى حياته يطلب الحق ولا يرضى بالباطل ، وقدّم للمحاكمة لاتهامه بافساد الشباب ، أى أنه كان يزعزع عقائدهم فى القيم السائدة .

فلما أعدم سقراط ، حزن عليه تلميذه أفلاطون حزنا شديدا ، وسخط على الديمقراطية التى كان يعدها مسئولة عن محاكمته والحكم عليه ، ثم رحل أفلاطون عن أثينا ، وطاف بكثير من بلاد الشمس ليلتقى بزملائه الفلاسفة . ذهب الى ميجارا ومكث عند أوقليدس الميجارى زمنا . ورحل الى مصر حيث التقى بكهنتها ودرس النظم المصرية فى الدين والتعليم والحكم والفنون ، وأعجب بثبات هذه النظم .

فلما قضى فى مصر وطره رحل غربا فى شمال افريقيا الى مدينة « قورينا » وهى مدينة أنشأها اليونانيون فى الجبل على مقربة من البحر . وفى القرن السادس بعد الميلاد خربتها الزلازل ، واندثرت حضارتها ودفنت تحت الأنقاض ، ثم كشف حديثا عن آثارها كاملة ، ولكنا لا ندرى أين كانت تقع المدرسة القورينائية . وقد ذهب افلاطون ليلقى هناك ثيودورس الرياضى ويتذاكر واياه العلم الرياضى .

ثم توجه بعد ذلك الى تارنتوم بجنوب ايطاليا ، وكانت معقل الفيثاغوريين حيث التقى بزعيم المدرسة ارخيتاس الرياضى المشهور . جمع أرخيتاس بين العلم الرياضى ، والفلسفة ، والسياسة ، كما كان قائدا مظفرا ، وقد انتخبه

أهل مدينته حاكما عليهم ، فكان بذلك الحاكم الفليسوف الذى لعبت صورته فى خيال أفلاطون ورأى فى هذه الصورة النموذج لرئيس المدينة الفاضلة .

ولم يلبث أفلاطون ان اتجه الى صقلية واتصل فى سراقوسة بديون شقيق زوجة ديونيسوس طاغية سراقوسة . وغضب ديونيسوس على أفلاطون بسبب انتقاد الفيلسوف لسياسته ، فأمر به أن يباع فى أسواق العبيد ، وبيع فعلا فى أيجينا بثلاثين ميناى ، وافتداه تلاميذه ، وفكوا أسره ، وعاد الى أثينا سنة ٣٨٧ قبل الميلاد ، وقد بلغ الأربعين من العمر ، فبادر بانشاء الأكاديمية .

اختار للمدرسة مكاناً خارج أسوار أثينا على مقربة من بابها الغربى ، وهو عبارة عن بستان كان ملكا للبطل « اكاديموس » ، الذى ينسب اليه المكان فقيل اكاديمية . وكان يؤدى الى هذا البستان طريق يحف به من الجانبين تماثيل عظماء اليونان ، ومنهم بركليس . وكان ذلك المكان أثيرا عند سقراط لنضرة زرعه ، وصفاء مائه ، وكثرة جداوله ، وقد وصفه أفلاطون فى افتتاح محاورة « فيدروس » حيث ذهب سقراط وتلميذه فيدروس وكلاهما حافى القدمين يخوضان فى ماء الجدول ، ثم جلسا على الأرض فى ظل شجرة باسقة . والى جانب ذلك كان المكان مقدساً ، وهب للالاهة « أثينا » ، وأقيم فيه معبد لتمجيدها تحيط به احراج شجر الزيتون ، الذى كان

يُمنح زيته للفائزين فى اعياد « الباناثيناى » اكبر اعياد اثينا . هذا فضلا عن ملعب رياضى انشأه قائد اثينا المسمى قيمون فى أوائل القرن الخامس . فى هذا المكان المقدس ، او هذه الضاحية البديعة اشترى افلاطون البستان وقطعة الأرض التى اقيم عليها بناء المدرسة . ولسنا نعرف على التحقيق على اى هيئة كان مبنى المدرسة ، وأكبر الظن انها كانت تشمل معبداً لربات الفنون ، وحجرات للأساتذة والطلبة ، وقاعات للاجتماعات ، والاستماع الى المحاضرات ، وتناول الطعام مشتركين معاً . وقد جرت العادة فى أيام الصيف أن يستمع الطلبة للمحاضرات فى « مماشى » البستان ، او فى ظل الرواق . وهذه العادة مع انها كانت عامة فى معظم المدارس الفلسفية فى ذلك الحين ، نعنى أن يتلقى الطلبة الدرس وهم يمشون حول الأستاذ ، الا أن المدرسة التى اختصت باسم المشائين هى مدرسة ارسطو دون غيرها من المدارس .

وكانت المدرسة اشبه بفرقة دينية ، فيها المعبد الموهوب لربات الفنون ، والذى كان الطلبة يقدمون اليها الأضحية فى أوقات معلومة ، وبخاصة لهرمس اله الحكمة . وكانت المعيشة بين اعضاء المدرسة ـ رئيسا وطلبة ـ مشتركة فى الملبس ، والمأكل ، والنوم ، وبعض لوازم اختصت بها المدرسة مثل طريقة تصفيف الشعر ، واتخاذ قلنسوات فوق الرأس ، والاتكاء على العصا .

كان افلاطون صاحب المدرسة ، ومالك الأرض والبناء ، وهو الرئيس . وقد وضع للمدرسة نظاماً للرياسة بعد وفاته ، هو نظام التعيين بالوصية . غير أن الرياسة أصبحت تتم فيما بعد بالانتخاب السرى من جميع أعضاء المدرسة .

ولم يكن أفلاطون — على عكس السفسطائيين — يتناول أجرا على التعليم ، فقد كانت هناك مدارس فى أثينا تتقاضى أجوراً فادحة مثل مدرسة « ايسقراط » التى كانت تعلم الخطابة بوجه خاص . وقد امتنع أفلاطون عن أخذ الأجر على التعليم اتباعاً لسنة سقراط الذى كان يرى أن المعرفة لا تعلم بل تنكشف للانسان من باطن النفس ، أو أن العلم تذكر والجهل نسيان بحسب عبارته المشهورة ، فكيف يتقاضى المعلم أجراً على شيء لا يملكه ولا يمنحه . واذا كان سقراط على فقره لم يؤثر عنه تناول الأجر ، فمن باب أولى يمتنع أفلاطون سليل الأرستقراطية والثراء . وفضلا عن ذلك فان « ديون » دفع مبلغا كبيرا هو الذى اشترى به افلاطون الأرض والبستان ، وكان الأغنياء يمنحون المدرسة هبات سخية ، كما كان الطلبة الأثرياء يعينون المدرسة ، كل على قدر استعداده .

وحيث كانت طبيعة الدراسة تعتمد على الحوار والمناقشة ، فلم يكن من المهم أن تتم الدراسة داخل قاعات مجهزة بأدوات ، وبخاصة الأدوات والأجهزة العلمية ، التى يحتاج اليها كل من الأستاذ والتلميذ لتوضيح بحثه . كان

المحاضر فى الأكاديمية يجلس فوق كرسى عال فى الرواق ، ويجلس حوله التلاميذ على أرائك من الحجر . وأيضا فقد كان من المــألوف أن يحــاضر الأستاذ وهو يمشى وحوله تلاميذه . ولم يؤثر عن أفلاطون انه كان يحاضر من كتاب ، أو حتى من مذكرات مدونة . ولكن بعض تلاميــذه كانوا يقيدون عنه بعض المذكرات وبخاصة محاضراته « فى الخير » . ومن طريف ما يُروى أن أحد التلاميذ ذهب يســتمع عن افلاطون هذه المحاضرات التى ذاع صيتها عن الخير ، فأصيب بخيبة أمل شديدة لأنه سمع محاضرات فى الهندسة والفلك .

والثابت أن أفلاطون كان يرى أن الفلسفة لا تدوّن ، وقد تأثر فى ذلك بأستاذه سقراط الذى انفق حياته يناقش ويحاور ، ولم يخلف شيئا مدونا . حقا ظهر قبل أفلاطون وقبل سقراط جماعة من الفلاسفة دونوا فلسفتهم فى كتب ، وكانت تلك الكتب متداولة وبعضها يباع بثمن زهيد ، وكان بعض تلك الكتب منظوماً فى قصائد مثل فلسفة بارمنيدس أو انبادقليس . ولكن أفلاطون اختلف عنهم ، لأن الحكمة الصحيحة لا تدون . وقد كتب فى الخطاب السابع الى ديون ما نصه : « ان حقائق الفلسفة لا يمكن التعبير عنها بالألفاظ كما يمكن فى غيرها من الموضوعات : ذلك انه بعد أن يتلقى المرء المعرفة من مرشد صادق فى هذه الدراسات الفلسفية ، وبعد الانقطاع بعض الوقت الى صحبة ذلك المرشد ، اذا ببريق من الفهم يضيء النفس .... ولست أعتقد أن الكتب

المؤلفة فى هذا الباب تفيد الناس اية فائدة ، اللهم الا بالنسبة لعدد قليل ممن يستطيع أن يكشف الحق بنفسه » .
والسبب الحقيقى الذى من اجله رفض أفلاطون كما رفض سقراط من قبل تدوين الفلسفة هو ان وظيفتها احياء النفوس وصقلها وتزكيتها لتكشف الحقائق بنفسها من ذات نفسها ، لا أن تأخذ الحقائق عن الفلاسفة ، وان تتلقنها وتحفظها وترددها ، كما أصبحت فى العصر المدرسى فجمدت وماتت .

ولكن وصية أفلاطون لم تنفذ حرفيا ، فان بعض تلاميذه وبخاصة أرسطو روى لنا آراء استاذه ، لا على سبيل الرواية التاريخية ، بل ساقها فى معرض النقد ، كما فعل فى كتاب ما بعد الطبيعة حين صور آراء أفلاطون فى أن المثل أعداد ، ثم نقدها . ومع ذلك فان الاعتماد على أرسطو فى معرفة رأى افلاطون خطر ولا يؤمن ، كما أنه من الخطورة الاعتماد على افلاطون فى معرفة آراء سقراط .

فنحن نعرف أن افلاطون كتب عدة محاورات بقى منها ثمان وعشرون واحدة من أهمها الجمهورية والنواميس ، وأجرى فيها الحوار على لسان سقراط مما يجعل المرء يعتقد أن ما ورد فى هذه المحاورات انما هو آراء سقراط لا أفلاطون . والحق فى ذلك ان بعض المحاورات يصور أفكار سقراط ، وهى المحاورات السقراطية ، وبعضها الآخر يصور آراء أفلاطون ، والمؤرخون مختلفون فى تحديد هذا

النوع أو ذاك . هذه المحاورات ، سواء منها السقراطية أم الأفلاطونية ، خاطب بها أفلاطون الجمهور الواسع وليس خاصة تلاميذه . وقد لقيت المحاورات نجاحا منقطع النظير ، وكان الناس يقرءونها بصوت عال ، وكانت تمثل على خشبة المسرح زمان شيشرون . ومع أن أفلاطون حذر طلابه من تدوين الفلسفة ، واعلن صراحة أن هذه المحاورات لا تعبر عن آرائه الفلسفية ، الا أن المتأخرين اعتمدوا عليها فى معرفة فلسفته ، وبخاصة فى نظرية المثل . وكانت المحاورات ، أو على الأقل بعضها ، مثل فيدون ، وطيماوس ، والجمهورية ، تدرس فى الأكاديمية حتى زمانها المتأخر ، ويتولى الأساتذة شرحها . وكان الطلبة الذين يرحلون الى اثينا لتعلم الفلسفة يجدون بغيتهم فى هذه المحاورات وشروحها . ففى القرن الثالث بعد الميلاد نجد فرفريوس الصورى يحضر بعض الوقت على لونجينوس فى اثينا شروحه على محاورات أفلاطون .

ليس معنى ذلك أن المحاورات لم تكن فى زمان افلاطون ، ووقت كتابته لها ، تدرس فى الأكاديمية . كانت متداولة ، ولكنها لم تكن أساس التدريس . كان الطلبة يطلعون عليها كأى فرد من افراد الجمهور . ولعلهم كانوا ينتقدون الأفكار التى عرضها أستاذهم فيها ، ولذلك تعاقبت المحاورات ، يعدل اللاحق منها السابق ، وتطورت آراؤه بفضل حرية النقد والمناقشة . وكان النقد جريئا مرآ لا يرحم ، أطلعنا

أرسطو الذى كان تلميذا بالأكاديمية على طرف منه ، وارسطو هو القائل فى كتاب الأخلاق : أحب افلاطون واحب الحق ولكن حبى للحق أعظم . انه يعترف بصداقته لأستاذه ، ومحبته له ، ولكنه لا يتنازل عن التمسك بالحق فى سبيل الصداقة .

ولما كان الغرض الأساسى من انشاء الأكاديمية تخريج طائفة من الحكام والساسة ، فمن الطبيعى أن تكون دراسة الشرائع واصولها وانظمة الحكم الصالح هى التى تكون منهج الدراسة . ولهذا السبب لجأ اليها أهل المدن المجاورة يطلبون رأيها فى التشريع ، كما فعـــل ابامنونداس عندما طلب تشريعا لمدينـــة ميجالوبوليس . والى جانب ذلك كانت الأكاديمية تدرس العلوم الرياضية من حساب وهندســة وفلك وموســـيقى . وقد مر بنا كيف كان يتوقع الذين حضروا دروسه فى « الخير » أن يسمعوا شيئا عن الفضائل ، فاذا بهم لا يسمعون الا فلكا وحســـابا وكلاما عن الواحد والمحدود وغير ذلك من الأمور الرياضية . ذلك أن الرياضة كانت عند أفلاطون مدخلا لا غنى عنه الى الفلسفة ، ولذلك كتب على باب الأكاديمية العبارة المشهورة : « من لم يكن مهندسا فلا يدخل علينا » . ومن الفروض الفلكية التى كانت سائدة فى المدرسة انتظام حركة الأجرام السماوية ، وعلى أساس هذا الفرض كان علماء الأكاديمية يفسرون تحير الكواكب .

من أولئك العلماء الذين عاونوا أفلاطون ، وكانوا سبب شهرة الأكاديمية رياضيا ؟ من الصعب معرفة أسمائهم واحدا واحدا . ثم ان التلاميذ بالنسبة لأستاذهم لم يكونوا طلبة بمقدار ما كانوا أصحابا . ونحن نعلم ان افلاطون ذهب للقاء ثيودورس الرياضى ، وأرخيتاس الفيثاغورى ، وأوقليدس الميجارى ، كل فى موطنه ، ولم يكن بالنسبة اليهم تلميذا ، كذلك كان يحضر المدرسة عند أفلاطون عدد من الأصحاب يمكن أن يعدوا من علماء الأكاديمية ، منهم ثيتاتوس ، وايدوكسس ، بل يذهب بعض المؤرخين الى انهم فعلا من تلامذة افلاطون .

ولسنا نعلم عن ثيتاتوس الا النزر القليل ، ومع ذلك فقد خلد افلاطون اسمه حين جعل محاورة برأسها تحمل اسمه ، وكل ما نستفيده عن حياته من هذه المحاورة انه كان من أهل اثينا ، وانه تعلم على يدى سقراط وثيودورس القورينائى ، وانه كان معاصرا لأرخيتاس وأفلاطون . ويبدو انه كان رياضيا بارعا وصاحب كشوف جديدة فى هذا العلم العجيب ، مما حدا بأفلاطون الى أن يخلد اسمه . والمشهور أن هذه المحاورة تبحث فى نظرية المعرفة وكيفية اكتسابها ، أمن الحس أم من العقل . ولكن ثيتاتوس الى جانب ذلك ، بل قبل أن يكون فيلسوفا ، فهو رياضى له رأى فى الأعداد الصماء ، والكميات الصماء — أى التى لا تخضع للقياس — ورأى فى المجسمات المنتظمة .

أما « يودكسس » فأصله من كنيدوس ، تعلم الهندسة على يد أرخيتاس ، ثم رحل الى اثينا وهو فى الثالثة والعشرين من العمر بعد افتتاح الأكاديمية بعامين (افتتحت الأكاديمية ٣٨٧ ق.م) . وكان فى صباه شديد الفقر ، ولكنه اكتسب ثروة كبيرة من التعليم ، بعد أن ذهب الى مصر وظفر بشهرة واسعة فى الفلسفة والرياضة والفلك . وقد طلع بنظرية جديدة فى التناسب ، واكتشف « القطاع الذهبى » ، أى « أجمل » قسمة لخط أو كمية ، قسمة ذات وسط وطرفين . ويمكن القول انه انشأ علم الفلك مفسرا حركات الكواكب بنظرية كرات تدور على محاورها ، ومتحدة المركز .

ليس معنى ذلك ان هذين الاثنين هما وحدهما العالمان اللذان تخرجا فى الأكاديمية ، فهناك اسماء تتردد أيضا ، منها ليوداماس ، ونيقوليدس ، وليون . وهؤلاء الثلاثة كان لهم اثر فى تقدم الهندسة وتنظيم دراستها ، وزيادة نظرياتها ، وترتيبها ترتيبا علميا ، فكانوا بذلك أصحاب الفضل فى التمهيد لظهور أقليدس صاحب الهندسة .

ومن الطبيعى ان يكون منهج البحث ملائما للعلوم الرياضية التى اشتهرت بها الأكاديمية . وقد بدأت المناهج تتميز بوضوح منذ سقراط الذى اشتهر بمنهج : « التهكم والتوليد » . والمنهج السقراطى يعتمد أساسا على الحوار ، لأن المباحث التى خاض فيها هى العلوم الانسانية من أدب

وفن ولغة وشعر ودين واخلاق واجتماع وسياسة . وقد اتبع هذا المنهج فى الأكاديمية وتصـوره المحاورات أجمل تصوير ، وهو منهج يقوم على تعريف المعانى الكلية ، وتحديد الألفاظ ، والاستقراء .

والأصل فى المحاورة انها مناقشـة تتم بين شخصين ــ أو أكثر ــ وتسمى باللغة اليونانية «ديالوج» من المقطعين « ديا » و « لوجوس » أى الكلام أو القول بين اثنين . وقد تطور الحوار عند سقراط الى « الجدل » عند افلاطون وهو يعنى باليونانيـة « ديالكتيك » من المقطعين « ديا و « لكتيكون » أى كلام أو حديث . والفرق بين الديالوج والديالكتيك أن الحوار حديث بين شخصين ، والجدل حديث بين الشخص نفسه ، فهو تفكير يدور داخل النفس ، ومنه عند افلاطون جدل صاعد ومنه جدل نازل . والجدل بهذا المعنى هو المنهج الفلسفى بلا منازع ، لأن النفس تصعد الى المثل اى الحقائق ، ثم تنزل من عالم المثل الى عالم الحس ، وتهبط من عالم الثبات الى عالم التغير .

اما المنهج الملائم للرياضيات فهو التحليل والقسمة . ويقال ان افلاطون هو الذى اخترع طريقة التحليل ، ثم وهب المنهج الى تلميذه ليوداماس . والتحليل باليونانية « انالوسيس » (Analysis)، وهو الذى أصبح فيما بعد أساس المنطق الأرسـطى فى كتابيه الرئيسيين انا لوطيقا الأولى وانا لوطيقا الثانية ، أى القياس والبرهان . خذ مثالا

لذلك فكرة « المساواة » وكيف يحللها فى محاورة « فيدون » من النظر الى قطع متساوية من الخشب . ويقول بروقلس فى تعليقه على الكتاب الأول لأوقليدس عن ليوداماس : « ان أفلاطون شرح له طريقة التحليل فكانت عونا له فى الكشف عن أمور هندسية كثيرة » .

ولقد اشتهرت الأكاديمية باستخدام منهج القسمة ، وبخاصة القسمة الثنائية . وفى محاورة السفسطائى نموذج لهذا المنهج . والقسمة مفيدة فى التصنيف والتعريف . تدور محاورة السفسطائى بين ثيودورس القورينائى ، وثيتاتوس الرياضى ، وسقراط ، وشخص رابع من ايليا . وقد حاول المتحاورون ــ وهم كما نرى رياضيون ــ تحديد معانى السفسطائى ، والسياسى ، والفيلسوف . فالسفسطائى يعالج فنا من الفنون ، والفنون اما أن تكتسب واما أن تبتدع .

والفنون المكتسبة اما أن تكون بالتعلم أو المحاكاة ، وهى كالتجارة ، والحرب ، والصيد .

والصيد أنواع ، منه اقتناص الأحياء ، ومنه اقتناص غير الحى .

وصيد الأحياء أنواع ، مثل صيد السمك فى البحار ، والطيور فى الهواء ، والدواب على ظهر الأرض . وذلك بضروب مختلفة من الشباك والفخاخ والصنانير . والسفسطائى صائد ، وفنه مكتسب ، وصناعته اقتناص

الناس من ذوى الحسب والمال ، يقـدم لهم ما مقـابل ما يأخذه من اجر .

فهذا نموذج للقسمة الثنائية ، ومنهج القسمة وفائدته فى التعريف والتصنيف .

ولم تكن الأكاديمية مقصـورة فى ابحاثها على العلوم الرياضـية فقط ، بل كانت تبحث أيضا فى علوم الحياة . ولكن أتجاه المدرسة بوجه عام كان نحو الرياضيات . وقد احتفظ أحد شعراء الكوميديا بصورة تحكى ما كان يجرى فى الأكاديمية من بحث فى النبات . قال افكراتس شـاعر الكوميديا فى تمثيليته التى يدور فيها الحـوار على النحو التالى :

« أخبرنى عن افلاطون ، وسبيسيبوس ، ومينديموس ماذا يعملون الآن ؟ اى فكرة عميقـة يبحثونها واى جدل شديد يدور بينهم ؟

— انى أعرف كل شىء وساخبرك ببساطة . فى عيد البناثيناى رأيت جماعة من الشباب فى ملعب الأكاديمية ، وهناك سمعت امورا بعيدة عن التصديق . كانوا يعرّفون ويقسمون العالم الطبيعى ، ويميزون عادات الحيوان وطبائع الشجر وانواع الخضر ، ورأيت معهم « يقطينـا » كانوا يبحثون من أى نوع هو .

— وهل قرروا اى نبات هو ، ومن اى نوع ؟ اخبرنى أن كنت تعرف .

ـ حسـنا ! لقـد ظلوا جميعا أول الأمر صـامتين ، وانحنوا فوقها بعض الوقت يتأملونها . وفجأة وهم ما زالوا يفحصونها قال أحد التلاميذ انها خضر مستديرة ، وقال آخر انها حشيش ، وثالث انها شجرة . فلما سمع طبيب صقلى كان موجودا هناك ذلك الحديث انفجر ساخطا على الهراء الذى ينطقون به .

ـ احسب أنهم لابد غضبوا غضبا شديدا وصاحوا فى وجهه ، اذ من الفظاظة أن يفعل ذلك فى وسط الحديث .

ـ لم أحفل بالتلاميذ ، ولكن افلاطون الذى كان موجودا خبرهم فى عطف شديد وبغير انزعاج أن يحاولوا من البدء تعريف نوعها . ثم مضوا فى تعريفاتهم » .

ويتضح من النص السابق أن الأكاديمية كانت تبحث فى علوم الحياة . ثم ان سبيسيبوس ابن أخت أفلاطون ، وخليفته فى رياسة المدرسـة ، كتب فيما بعد مؤلفات فى الحيوان والنبات بقى منها اجزاء تبحث فى الاسفنج والمحار . وليس بعيدا أن الاكاديمـية زمان أفلاطون كانت مجهزة بالأدوات العلمية والخرائط ، ولا نزاع أنها كانت مجهزة بالكتب . ولكن يمكن القول ان الأكاديمية اتجهت على العموم وجهة رياضية ، على حين اتخذت مدرسة ارسطو ـ وهى اللوفيون ـ طابعا بيولوجيا طبيعيا .



يتضح مما سبق أن الأكاديمية اهتمت ببحث سائر العلوم والمعارف ، ولكنها قدمت بعضها على بعضها الآخر بحسب اتجاهها فى الفلسفة . ويمكن تقسيم العلوم بحسب أهميتها أربعة أقسام هى الفلسفة ، ثم العلوم الانسانية من سياسة وأخلاق ونفس واجتماع ، ثم العلوم الرياضية من حساب وهندسة وفلك وموسيقى ، ثم العلوم الطبيعية وعلوم الحياة . والفلسفة تاج هذه العلوم كلها ، وهى الغاية التى ينتهى اليها الطالب بعد أن يتبحر فى العلوم وبخاصة الرياضيات . وتجتمع فلسفة افلاطون فى كلمة واحدة هى « المثل » ، وافلاطون هو الذى ابتدع الفلسفة المثالية . ولا تزال المثاليات حتى اليوم تعتمد فى نزعتها عليه .

المثل عند أفلاطون هى النماذج الثابتة الأزلية التى بها يفسر وجود الموجودات ومعرفتها . ولقد كانت المشكلة التى واجهها مفكرو الاغريق والتمسوا لها الحل هى أصل هذه الموجودات الكائنة ، والتى تظهر الى الوجود ثم تولى عنه . أى تفسير التغير والكثرة ، أهذه الكثرة حقيقية أم أنها ترتد الى شيء واحد ، وهل هذا التغير الذى نشاهده حقيقى أم انه مظهر فقط يخفى وراء ثباتا . واختلفت وجهات نظر الفلاسفة اليونانيين اختلافا كبيرا منذ القرن السادس ، بعضهم يقول بمبدأ واحد مادى ، كالماء ، أو الهواء ، أو النار ، وبعضهم الآخر يذهب الى القول بالعناصر الأربعة مثل انبادقليس ، وبعضهم الثالث يقول بالذرات مثل

ديمقريطس ومدرسته . هذا الى الفيثاغوريين الذين فسروا الموجود بالمبدأ الرياضى ، وبالشكل الهندسى . ثم ظهر بارمنيدس فى ايليا بجنوب ايطاليا فقرر أن « الوجود موجود » ، وأنه واحد ، وأنه ثابت ، وهذا هو طريق الحق . أما اذا سار الانسان فى طريق « الظن » فانه يرى الموجود كثيرا ، ومتغيرا .

والمثال الأفلاطونى جمع بين الواحد الفيثاغورى ، وبين الواحد البارميندى .

المثال الثابت الواحد هو أصل الموجودات المحسوسة المتغيرة .

هذا هو الحل السعيد الذى اهتدى اليه أفلاطون لتفسير وجود الموجودات الكثيرة المتغيرة فى عالم الحس .

ولكنه فطن الى عجز هذه النظرية وقصورها عن توضيح كثير من المشكلات التى تعرض للذهن . وقد انتقد أفلاطون نفسه ، وراجع فكره ، كما يتضح من محاورة بارمنيدس . وتساءل عن أصل المحسوسات : أهى « تشارك » فى المثال ، أم هى « محاكاة » للمثال . والمشاركة تفترض ان يكون المثال كلا ، وأن يكون كل واحد من المحسوسات جزءاً من هذا الكل . والمحاكاة تذهب الى أن المثال أصل ثم تتعدد المحسوسات عنه كما تتكثر الصور فى المرايا . وعندما نقلت الفلسفة اليونانية الى العرب ، أعجب الغزالى بنظرية المحاكاة وتشبيه النفس بالمرآة التى

تنمكس على صور المثل ، فاصطنع هذه النظرية فى كثير من كتبه .

والمثال لأنه معقـول فلا مادة فيه ، والمحسوس لأنه مجسم مشخص فانه مادى . فكيف نشأ المحسـوس المادى من المعقول اللامادى ؟ هذه هى جوهر المشكلة التى اضطر أرسطو ـ تلميذ أفلاطون ـ الى حلها بقوله ان المحسوس مركب من مبدأين الهيولى والصـورة ، والقول بأن العالم مادى . وليس معنى ذلك ان فلسفة أرسطو مادية ، بل تدل على تسليمه بوجود المادة الى جانب الصورة .

وتتدرج المثل عند أفلاطون حتى تقف عند ثلاثة هى الحق والخير والجمال . ولا تزال هذه القسمة الثلاثية دارجة مألوفة حتى اليوم .

***

طال عمر الأكاديمية تسعة قرون ، اذ أنشئت ٣٢٧ ق.م ، فى أثينا ، وأغلق الامبراطـــور جستنيان ابوابها ٥٢٩ بعد الميلاد . وتقلبت فى أثناء عمرها المديد فى عدة أطوار هى الأكاديمية القديمة والوسطى والحـــديثة ، ثم الأكاديمية بعد الميلاد . والتقسيم المذكور يرجع الى مؤرخى الفلسفة من المحدثين ، وهو مصطنع بعض الشىء ، اذ الحق فى ذلك أن الطابع الذى يسود المدرسة فى زمن معين انمـا يرجع الى شخصية رئيسها وتوجيهه .

تولى رياسة المدرسة بعد موت أفلاطون اسبيسيبوس ابن أخته ، الذى أتم تنظيم المدرسة فى شكلها الأخير . واستمر رئيسا من ٣٤٧ (أى بعد موت أفلاطون) الى ٣٣٩ . وخلفه زينوقراط ٣٣٩ — ٣١٥ ، ثم بوليمون ٣١٥ — ٢٧٠ ، ثم اقراطس بعد ٢٧٠ ، وينتهى معه طور الأكاديمية القديمة ، التى امتازت بالسير فى الطريق الذى رسمه أفلاطون . وقد لمعت فى تلك الفترة أسماء كثير من العلماء والفلاسفة ، نذكر منهم يودقسس ، وهرقليدس ، وغيرهما . ويقال ان كرانتور تلميذ بوليمون هو أول من وضع شروحا لمحاورات أفلاطون .

ثم تحولت الأكاديمية الى نزعة الشك ، بدأت مع الرئيس ارقليساوس ، الذى يعد منشىء الأكاديمية الوسطى ، ثم اصبح هذا الاتجاه واضحا قويا على يد كارنيادس ، وتسمى الأكاديمية فى عهده (٢١٣ — ١٢٩) بالأكاديمية الثالثة . وقد أرسله الأثينيون فى سفارة الى روما ونجح فى مهمته .

وأكاديمية رابعة تحت رياسة فيلون من أهل لاريسا ، وقد وجهها وجهة رواقية . وأكاديمية خامسة برياسة أنطيوخس العسقلانى (توفى ٦٨ ق.م) الذى وفق بين الأفلاطونية والأرسطية والرواقية ، وتسمى هذه الأكاديمية الخامسة عادة بالأكاديمية الجديدة . ويمكن القول ان كارنياس وفيلون وأنطيوخس كان لهم الفضل فى نشر تعاليم

الأكاديمية بعد انتقالها الى جنديسابور محتفظة بهذه التعاليم بفيلون وانطيوخس واستمع اليها .

ومما يروى أن سللا عندما حاصر اثينا سنة ٨٦ ق.م احتاج الى خشب فقطع أشجار الأكاديمية ، التى انتقلت منذ ذلك الحين داخل اسوار أثينا . ومهما يكن من شيء فان تاريخ الأكاديمية حتى القرن الخامس بعد الميلاد غامض . وكل ما نعرفه أنها ازدهرت فى القرن الخامس ، وتجددت ، وأصبحت مركزا للأفلاطونية المحدثة ، المتأثرة بالفلسفة الاسكندرانية . وقد لمعت فى هذه الفترة اسماء مشهورة بوجه خاص فى الفلسفة العربية ، منهم بروقلس ، وفلوطارخس ، وسوريانس ، ودومنيونس ، وماريانوس ، وايزودورس ، والدمشقى الذى كان آخر رئيس للمدرسة اى من ٥١٠ الى ٥٢٩ بعد الميلاد .

ويبدو أن السبب الرئيسى فى اغلاق الأكاديمية ـ وكذلك اللوقيون ـ انها كانت مهد التعاليم الوثنية . وكانت المسيحية قد تغلبت وسادت ، وارادت أن تقضى على كل أثر للوثنية . وقد آثر فلاسفة الأكاديمية ان يهجروا المدرسة الى مكان آخر يمارسون فيه تعاليمهم بحرية ، ورحب بهم كسرى أنو شروان ، وانزلهم فى جنديسابور ، وترك لهم حرية البحث ، فنقلوا معهم الفلسفة والعلوم والطب . وظلت الأكاديمية فى العالم الرومانى ، وبخاصة ان شيشرون التقى الى ان انتقلت الى بغداد زمان العباسيين ونقلت علومهم

وفلسفتهم الى اللغة العربيــــة . وهكذا نرى أن المدرسة الأصلية زالت من أثينا ، وتغـير مكانها ، وكذلك لغتها ، ولكن تعـاليمها لم تمت ، وظلت الأكاديمية حية بأفـكارها وفلسفتها ، وقد عادت تعاليمها المثالية وفلسفتها الرياضية الى الظهور مرة أخرى فى الوقت الحاضر ، معـدلة بطبيعة الحال مع مقتضيات العصر والتطور الكبير الذى حدث خلال عشرين قرنا من الزمان .

المشائية

« اللوقيون أو الليسيه »

مدارس « الليسيه » معروفة بهذا الاسم ومشهورة فى مصر ، وهى تلك المدارس التى تعلم الطلبة حتى يظفروا باجازة البكالوريا ، أى المرحلة السابقة مباشرة على التعليم الجامعى . وهذا النوع من التعليم فى الليسيه منتشر فى فرنسا ، وعنها أخذنا هذا اللون من المدارس .

والليسية « Lycée » هى الاسم الفرنسى الذى أصبح يطلق على الاسم اليونانى Lyceum ، أو الأصح بالرسم اليونانى Lykeum وقد عربها القدماء فقالوا «اللوقيون» وهى المدرسة التى أنشأها أرسطو فى اثينا ، وكان يمارس التعليم فيها ، وأصبحت تنافس الأكاديمية والمدارس الأخرى اليونانية . ومدرسة أرسطو مدرسة فلسفية عليا ، وليست ثانوية كالليسيه حديثا ، ولذلك ينبغى عدم الخلط بينهما ، والاعتقاد بأن الليسيه الحاضرة هى اللوقيون قديما أو استمرار لها .

وتعرف مدرسة أرسطو باسم آخر ، وبخاصة عند

العرب ، هى مدرسة المشائين ، لأن المعلم وتلاميذه كانوا يتعلمون وهم يمشون . وسبق أن ذكرنا ان هذه السُنّة لم تكن مقصورة على الطلبة فى مدرسة أرسطو فقط ، بل كانت شائعة فى جميع المدارس الفلسفية فى بلاد اليونان ، وذلك لطبيعة الجو الحار الذى يسود أثينا معظم أوقات السنة ، فكان الطلبة اما أن يسيروا فى الماشى تحت ظلال الأشجار ، أو يسيروا جيئة وذهابا فى « الرواق » داخل المدرسة . مهما يكن من شىء فقد اشتهرت مدرسة أرسطو باسم المشائين .

وقد ظلت اللوقيون باقية فى أثينا تنافس الأكاديمية وتمتاز عنها بلون خاص ، الى أن أغلق الامبراطور جستنيان أبواب المدرستين . ومع ذلك فان تاريخ اللوقيون أغمض من صاحبتها ، الا أن اللوقيون — أو المشائية — أشهر فى الزمن القديم . وكما يتصل انشاء الأكاديمية باسم صاحبها وفلسفته ، كذلك يتصل اللوقيون باسم منشئها ومؤسسها وصاحبها أرسطو ، فهى ثمرة غرسه ، ونتاج فلسفته . واذا كان أفلاطون قد أنفق أربعين عاما يشيد صرح الأكاديمية ، اذ أنشأها سنة ٣٨٧ ق.م واستمر رئيسا لها الى أن توفى سنة ٣٤٧ ق.م ، فان أرسطو لم يستمر على رأس مدرسته سوى اثنى عشر عاما ، لأنه لم يفتتحها الا وهو فى الخمسين من عمره . ولكن لماذا ترك ارسطو الأكاديمية التى تعلم فيها وكان من أبرز تلاميذها ، وقرر أن ينشىء مدرسة أخرى ؟

والجواب عن هذا التساؤل يقتضى منا ان نشير الى سيرة ارسطو بايجاز :

ولد أرسطو ٣٨٤ ق.م بمدينة ستاجيرا من أعمال خلقيس ، ولذلك حين يقال الفيلسوف الاستاجيرى لا تنصرف هذه التسمية الا اليه ، أو حتى حين يقال الاستاجيرى The Stagirite فقط . وكان أبوه نيقوماخوس من نسل أسقلبيادس طبيبا للملك امنتاس الثانى ملك مقدونيا ، الذى انجب فيليب والد الاسكندر . وكان الأطباء يورثون أبناءهم صناعتهم ، ومن هنا نشأ أرسطو على محبة العلوم الطبيعية وعلم الحياة ، وتدرب فى صباه على التشريح والجراحة . ولما بلغ الثامنة عشرة أوفد الى أثينا حيث التحق بالأكاديمية وظل فيها عشرين عاما . حقا كانت هناك عدة مدارس فلسفية فى اثينا ، ولكن الأكاديمية كانت افضلها وأرقاها ، وقد تأثر أرسطو بشخصية افلاطون وتعاليمه الى الأعماق ، وانطبع بطابع لا يمحى ، على الرغم من معارضة الفيلسوف الاستاجيرى لنظرية المثل . وكان صاحب الأكاديمية يعرف فى تلميذه فضله وذكاءه ، فسماه « القَرَّاء » ، « والعقل » أى عقل المدرسة . وكثيرا ما يصف أرسطو نفسه فى كتبه بقوله انه احد الأفلاطونيين ، أو بنص عبارته : «نحن الأفلاطونيين» . مما يدل على ولائه للأكاديمية .

ويذهب بعض المؤرخين من المحدثين الى تكذيب

الروايات القديمة التى تجمع على بقاء أرسطو عشرين عاما تلميذا بالأكاديمية . وهم يرون أنه أختلف الى أكثر من استاذ وبخاصة فى البلاغة مثل ايسقراط وديموستين ، وأنه كان يتردد على الأكاديمية بين حين وآخر . ولكن الذى يدحض هذا التصوير أن أرسطو كان يعارض مدرسة ايسقراط وكذلك مدرسة ديموستين ، لأنهما يعلمان على طريقة السفسطائيين التغلب على الخصم بسحر البلاغة ورنين الألفاظ ، لا بقوة المنطق والتفكير السديد المحكم . ومما يروى ان ارسطو كان يلقى دروسا فى الخطابة — وهو طالب فى الأكاديمية — على الجمهور ينافس بها دروس ايسقراط .

ويبدو أن الطابع العام لجميع المدارس الفلسفية قديما كان واحدا ، فالمدرسة جماعة من الباحثين والمفكرين يرتبطون بروح مشتركة ويشاركون فى آراء أساسية وفى الوقت نفسه يحتفظ كل واحد منهم باستقلاله فى البحث . وهذا الاستقلال يفسر لنا اتجاه أرسطو منذ كان فى الأكاديمية الى متابعة البحث فى العلم الطبيعى ، كما ذكرنا قبلا .

لم يكن ارسطو الذى سماه أفلاطون القراء ، والعقل ، ليقبل أن يستمر فى الأكاديمية تحت رياسة سبيسيبوس ، الذى مضى بعد موت أفلاطون يوجه المدرسة نحو الرياضة ، وأن يقلب الفلسفة — كما يقول أرسطو — الى رياضيات .

مهما يكن من شيء فلسنا ندرى الأسباب الحقيقية التى من اجلها هجر ارسطو الأكاديمية ، ورحب بدعوة زميل قديم له فى تلك المدرسة هو « هـرمياس » الذى أصبح حاكم أسوس وجمع حوله حلقة صغيرة من الأفلاطونيين . وبعد ثلاث سنوات ذهب الى ميتلين فى جزيرة لسبوس حيث لقى صديقه ثاوفراسطس زميله فى الأكاديميـة ، وخليفته فيما بعد على رياسة اللوقيون . وترجع مباحث أرسطو ومشاهداته فى العلم الطبيعى والبيـولوجى الى اقامته فى أسوس وميتلين . وفى سنة ٣٤٣ دعاه الملك فيليب لتثقيف ابنه الاسكندر ، فعلمه الياذة هوميروس ، ومبادىء الحكم . ولكن حقيقة التعليم الذى تلقاه الاسكندر من معلمه غير معروف . فلما توفى فيليب ٣٣٥ ق.م عاد أرسطو الى اثينا وانشأ اللوقيون وتلقى من تلميذه الاسكندر معونات كبيرة مالية وادبية .

• انشأ اللوقيون مدرسة فلسفية تختلف فى اتجاهها عن الأكاديمية التى عنيت بالعلوم الرياضية . كانت الأكاديمية تقع خارج أسوار أثينا فى الشمال الغربى من المدينة ، فاختار أرسطو لمدرسته موقعا فى الطرف المقابل من المدينة شرقى الأسوار ـ أو الشمال الشرقى ـ على مقـربة من طريق مراثون ، أكبر الظن بين جبل ليقابيتوس ونهر اليسوس ، حيث كانت تقع أيكة مقدسة موهوبة للرب أبولون لوقيوس وربات الفنون ، وكانت تلك الأيكة من الأمكنة المحببة الى

سقراط وكان يرتادها كثيرا . أما لوقيوس التى منها اشتق اللوقيون ، فهو صـــفة لأبولون ، وتعنى الذئب ، أو رب النهار .

ولما كان أرســـطو اجنبيا ، أى ليس مواطنا أثينيا ، فلم يكن له الحق فى امتلاك الأرض ، ولذلك استأجر بعض الأبنية وجعلها نواة مدرسته . وفى جوار ذلك المكان كان « يتمشى » هو وتلاميذه فى المماشى ، وتحت ظل الأشجار ، ذهابا وجيئة ، ولذلك سمى اتباعه بالمشائين ، ولو أن هذا الأسلوب فى التعليم ، كما ذكرنا من قبل ، لم يكن مقصورا على أرسطو وحده ، والتعاليم المشائية هى المأخوذة عن مدرسة ارسطو .

ومما يروى أن ارسطو كان يلقى نوعين من الدروس ، صباحية لخاصـــة تلاميذه ، وتسمى « سماعيـــة » أو « مستورة » ، ومسائية للجمهور الواسع وهذه اقل صعوبة من الأولى ، وتسمى علانية أو « منشـــورة » Exoteric . ليس معنى ذلك أن أرســـطو كان يضـــفى على دروسه الصباحية صفة السرية ، وأنه كان يحجبها عن الجمهور ؛ كلا ، بل الأمر ان دروس الصباح كانت تهم فئة قليلة من المشتغلين بالمســـائل الفلســـفية العويصـــة ، كالمنطق ، والميتافيزيقا ، والعـــلم الطبيعى ، على حين أن الدروس الأخرى كالأخلاق والسياسة كانت تجذب أسماع الجمهور ويعجب بها ، ويقبل عليها .

وأكبر الظن أن ارسطو جمع فى مدرسته بضع مئات من الكتب المخطوطة ــ ولم تكن الكتب الا مخطوطة بطبيعة الحال ــ فكانت أول مكتبة فى التاريخ ، وأصبحت نموذجا احتذت مثالها مكتبة الاسكندرية وغيرها من المكتبات . وكذلك اقتنى عدداً من الخرائط ومتحفا من نماذج شتى لأحجار ومعادن ونباتات وحيوانات ، ليستعين بها على توضيح محاضراته . ويقال ان الاسكندر وهبه مبلغا كبيرا من المال لاقتناء هذه الأشياء ، وأمر جميع الصيادين فى الامبراطورية أن يقدموا له نماذج مما يصيدونه فى الجو أو على ظهر الأرض أو فى الماء .

ولم يكن الاسكندر وحده راعى أرسطو وحاميه ، بل كذلك « أنطبطر » الذى خلف الاسكندر فى مقدونيا وصيا على العرش . ونحن لا نعلم حقيقة العلاقة التى كانت تربط بين ارسطو وانطبطر الذى لم يعرف عنه ميول نحو البحث الفلسفى ، ولكنه كان صديق أرسطو عندما عاش فى بلاط فيليب . ويكفى أن هذه الصداقة بلغت من الوثاقة حداً يجعل أرسطو ينص فى وصيته على تعيين انطبطر منفذا لها .

وهكذا لقيت اللوقيون التأييد من اكبر ملك عرفه التاريخ ، وأخلص وصى على عرش مقدونيا ، فلا غرابة أن تبدأ المدرسة قوية الى الحد الذى تبرز فيه على الأكاديمية نفسها ، ولم يكن زينوقراط رئيسها الثالث الذى انتخب بعد موت اسبيسيبوس خليقا أن يقف فى كفة واحدة مع

ارسطو ، ولعل ذلك كان من جملة الاسباب التى دعته الى افتتاح مدرسة جديدة لأنه انف ان يعمل تحت رياسة زينوقراط .

ونحن اذا كنا نجهل حقيقة الدروس التى كانت تلقى فى الأكاديمية ، ولا نعلم سوى الجانب الشعبى من تعاليم افلاطون فى محاوراته التى كان يخرجها للجمهور بين حين وآخر ، هذه المحاورات التى لا يزال معظمها موجوداً بين ايدينا حتى اليوم ، فان هذا الجانب الشعبى فى تعاليم ارسطو ، نعنى محاوراته الرائعة الأسلوب التى وصفها شيشرون بأن اسلوبها يجرى كأنه نهر من ذهب ، أضحى مفقوداً منذ فقدت هذه المحاورات بعد ان استمرت ثلاثة قرون من الزمان يقرؤها جمهور المثقفين جنبا الى جنب مع محاورات افلاطون . ولكننا لحسن الحظ نعلم تمام العلم حقيقة الدروس التى كان يلقيها ارسطو فى داخل المدرسة ، لأن كتبه ابتداء من المنطق الى الميتافيزيقا لا تزال باقية ، وسنتحدث عنها فيما بعد .

ولا بد أن الأبنية التى كانت تشغلها المدرسة كانت متعددة واسعة ، يتخذ بعضها لسكنى الطلبة ، وبعضها الآخر حجرات للمحاضرات ، وبعضها الثالث لحفظ الكتب والخرائط وما اشبه . واحد هذه الأبنية كان معبداً لربات الفنون ـ او متحفا كما نقول اليوم **Museum** ـ ولفظ المتحف بالأجنبية نسبة الى « موزايوس » اى ربات الفن .

واقيم فى المتحف تمثال لارسطو ، يقول ثاوفراسطس انه تمثال نصفى ، وقد أوصى أن يوضع فى المعبد .

ولما كان أرسطو أجنبيا عن اثينا ، ولم يكن له حق امتلاك الأرض كما ذكرنا ، فقد وهب ديمتريوس الفاليرى — تلميذ ثاوفراسطس — الأرض وما عليها من ابنية لثاوفراسطس . وفى وصية ثاوفراسطس التى حفظها لنا التاريخ يقول : « البستان ، والممشى Peripatos ، والمساكن الملحقة بالبستان ، أهبها كلها لأصدقائنا الذين يرغبون فى بحث الأدب والفلسفة بحثا مشتركا ، ما دام ليس من الميسور لكل الناس ان يكونوا مقيمين اقامة دائمة ، بشرط الا يفسد احد الأبنية او يقصرها على استعماله الخاص ، ولكن الشرط أن يملكوا المدرسة وكأنها معبد من الأملاك العامة ، وان يعيشوا معا معيشة لائقة على اساس من الصحبة والصداقة » .

وتدل هذه الوصية على أن روح ارسطو التى زرعها فى تلاميذه كانت لا تزال ترفرف عليهم . وقد وضع لهم ارسطو دستوراً للمدرسة يتبعونه فى الطعام والشراب والنوم . ومن دستور المدرسة ان يجتمعوا مرة كل شهر حول مائدة للطعام او الشراب ، على طريقة مادبة افلاطون ، رمزاً للمعيشة المشتركة . وفى وصية ستراتون الرئيس الذى تولى بعد ثاوفراسطس رياسة المدرسة نجد قائمة بالأدوات التي وهبها للرئيس الذى عهد اليه بالمدرسة من

بعده ، وهذه الأدوات هى الملاءات الخاصة بالولائم وكؤوس الشراب وجميع الأثاث الموجود فى صالة الطعام . ويبدو أن هذه الأدوات استمرت تستكمل على مر الزمن ، حتى ان المدرسة تحت رياســـة ليقون الذى تولى بعد ستراتون وجهت اليها كثير من الشكوى لأن الطلبة الفقراء لايستطيعون المشاركة فى المآدب بسبب ما فيها من ترف شديد . مهمـا يكن من شىء فان أرسطو كان قد وضـــع دستورا للشراب وللمآدب ، كما كانت الحال فى الأكاديمية ، وفى معظم المدارس الفلسفية التى وجدت فى ذلك الحين .

ولسنا ندرى شيئا عن الرسوم الدراسية ، ولكن يبدو انها كانت بحسب مقدرة كل طالب ، ولعل الفقراء لم يكونوا يدفعون شيئا . ولذلك كانت المدرسة تعيش على هبـات الأغنياء من جهة ، وعلى ما يدفعه الطلبة القادرون من جهة ثانيـــة .

ولسنا ندرى عدد التلاميذ الذين كانوا يحضرون دروس أرسطو ، ولكن يبدو انهم كانوا عدداً وفيرا . فقد حدثنا ديوجينيسس اللايرسى فى كتابه : « سيرة الفلاسفة » عند الكلام عن ثاوفراسطس أن ٢٠٠٠ طالب اعتادوا حضـــور دروسه ؛ ولو أننا نشك فى هذا العدد ، فاذا كان ثاوفراسطس وهو تلميذ أرسطو واقل منه شهرة حظى بهذا العـــدد من التلاميذ ، فلا بد أن عدد تلاميذ ارسطو كان أكثر . ولم يبين ديوجينس عددهم ، ولكنـــه قال انهم كثـــير ، ابرزهم

ثاوفراسطس . ولا بد أن هذا العدد الكبير هو الذى كان يحضر الدروس المسائية ، أما الدروس الصباحية ، أو السماعية ، فلم يكن العدد يتجاوز بضع عشرة تلميذا .

فما هى الدروس التى كان أرسطو يلقيها عليهم ؟

يختلف أرسطو عن أستاذه أفلاطون مزاجاً ومنهاجا وفلسفة . صاحب الأكاديمية كان يرى أن الفلسفة شيء يدرك بالحدس ، والرؤية الباطنة ، واتصال النفس بالحقائق الأزلية ، ولذلك عرف الفلسفة بأنها « رؤية » الحق ، وجدير بمن يبلغ الحق عن هذا الطريق أن يحتفظ به سراً من أسرار النفس ، اذ يصعب التعبير عن الحق باللفظ واللغة . ولذلك حذر أفلاطون فى أكثر من موضع من محاوراته الناس أن « يدونوا » الفلسفة ، لأنها تدرك وتحس فقط . وقد ذكرنا قبلا أن محاورات أفلاطون لم يودعها فلسفته التى كان يدرسها فى الأكاديمية ، وانما عرفنا تلك الدروس مما ذكره بعض تلاميذه ونقلوه عنه وعلى راسهم أرسطو .

كان ذلك راى افلاطون : ان الفلسفة حوار يدور بين عقلين ، أو « جدل » يصعد فى باطن النفس الى آفاق المثل الخالدة ، ويهبط من سماء المثل الى عالم المحسوسات والتغير . ولكن ارسطو كان له فى الفلسفة راى آخر ، فهى البحث عن العلل الأولى والغايات الأخيرة ، وهى ضرب من البحث المنظم الذى يعتمد على منهج آخر خلاف الحوار

وخلاف الجدل ، ذلك المنهج هو « المنطـق » الذى ابتكره ارسطو حتى اشتهر به ، ولقبه المتاخرون وبخاصة العرب : « صاحب المنطق » .

ولم يكن ارسطو يذهب الى القول بعدم تدوين الفلسفة ، لأن وجهة نظره نحو تفسير الموجودات تختلف عن وجهـة نظر افلاطون . فالفلسفة عند ارسطو هى « العلم بالموجود من حيث هو موجود » ، اى أنه يقر ويعترف بالموجـود المحسوس ، وما دام الأمر كذلك فالمحسوس مركب بلا نزاع من « مادة » أو بالاصطلاح اليونانى الذى دخل لغة العرب من « هيولى » . أما أفلاطون فقد ضرب عن المادة صفحا ، وفسرها تفسيرا رياضيا ، وزعم أن « المثل » هى أصـل الموجودات المحسوسة .

من هنا كان اتجاه أرسطو طبيعيا ، وكان اتجاه افلاطون رياضيا . ولعل هـذا الخلاف فى الاتجاه كان من جملة الأسباب التى دعت أرسطو أن يهجر الأكاديمية وأن يفتتح مدرسة جديدة . والفلسفة الطبيعية تبحث فى أمور غير تلك التى تبحث فيها الفلسفة الرياضية ، فضلا عن اختلاف المنهجين واختلاف الأسلوبين واختلاف النزعتين .

وقد خلّف لنا أرسطو مؤلفات فى جميع المعارف ابتداء من المنطق بأجزائه والطبيعة وعلوم الحياة الى الميتافيزيقا والأخلاق والسياسة . وكانت تلك المؤلفات متـداولة فى داخل المدرسة حول ثلاثة قرون من الزمان ، الى أن رتبها

أندرونيقوس الروديسى فى القـــرن الأول قبل الميلاد هذا الترتيب المعروف حتى اليوم ، واكتسبت هـــذه المؤلفات أسماء لم تكن لها زمان ارسطو .

مثال ذلك أن كتاب « الميتافيزيقا » لم يؤلفه ارسطو بهذا الاسم ، بل الفن الذى يبحث فيه هو اما الفلسفة الأولى ، واما الالهيات . أما الميتافيزيقا فهو اسم وضعه اندرونيقوس للدلالة على ترتيب الكتب التى جاءت « بعـــد » الكتب الطبيعية ، لأن « ميتا » باليونانية تدل على « بعد » ، ولذلك قال العرب فى ترجمتهم لهذا الكتاب انه كتاب « ما بعـــد الطبيعة » . وحقيقة امره انه ليس كتابا واحداً ، بل اربعة عشر كتابا مرتبة على حسب الحروف الأبجدية اليونانية .

والمنطق الذى تركه لنا ارسطو يتألف من ستة كتب أساسية ، هى (١) المقولات (٢) العبارة (٣) القياس (٤) البرهان (٥) الجدل (٦) السفسطة . وقد اضاف العرب فيما بعد الى هذه الكتب الستة ثلاثة أخرى ، مدخلا يسمى « ايساغوجى » أى المدخل الى المقولات وهو من عمل فرفريوس الصورى ، ثم الخطابة والشعر . والشعر بوجه خاص كتاب فنى يبحث فى الفن والجمال ولا صلة له بالمنطق ، ولكن العرب متأثرين ببعض شراح أرسطو جعلوه ضربا من القياس . ولم يكن ارسطو يعرف مصطلح « المنطق » فهذا المصطلح من وضع شيشرون فى عصر متأخر ، ولكنه كان يعنى بما نقول عنه المنطق « التحليلات » . وصناعة التحليل

عنده تمر فى مرحلتين أولى وثانية ، فالأولى هى القياس ، والثانية هى البرهان . والمقصد من المنطق هو البرهان الذى يؤدى الى معرفة اليقين فى الأمور العلمية ، لأنه يعتمد على مقدمات أولى يقينية . والمنطق عند أرسطو ، وعند المشائيين بوجه عام ، هو أداة التفكير ، هو « الأرجانون » أى الآلة التى اذا أحسن المرء استخدامها توصل الى التفكير الصحيح .

وهكذا نرى أن البرهان منهج ضرورى للبحث فى الطبيعيات ، وقد كان ارسطو مبتكراً الى حد مّا لهذا المنهج الذى استخدمه منذ كان فى أسوس وميتلين وعندما افتتح اللوقيون ، وكان يتتبع الظواهر الطبيعية للوصول منها الى القواعد الكلية السارية فى العالم الطبيعى . وله من الكتب فى هذه الموضوعات كتاب الطبيعة ، والسماء ، والكون والفساد ، والآثار العلوية ، ثم الكتب النفسية وعلى رأسها كتاب النفس ، والطبيعيات الصغرى التى تشمل الحس والمحسوس ، والذكر والتذكر ، والنوم والأرق وغير ذلك . ثم الكتب التى تبحث فى علم الحيوان ، وقد اقتبس الجاحظ فى الحيوان كثيرا من آراء أرسطو ، وذكره فى أكثر من موضع .

وههنا يمكن تقدير قيمة المساعدة التى امر بها الاسكندر المقدونى حين طلب من الصيادين فى الجو والبر والبحر أن يقدموا نماذج مما يصيدون لأرسطو ، او على أقل تقدير ان

يصفوا له ما لا يتيسر لهم تقديمه من أصناف الحيوان . وهذا المنهج الذى يعتمد على وصف النماذج المختلفة يسميه أرسطو « التاريخ الطبيعى » ، وفيما يختص بالحيوان يسميه تاريخ الحيوان ، يقصد بذلك تسجيل أصنافه المتعددة . ولم يتبع أرسطو هذه الطريقة فيما يختص بالبحث الطبيعى فقط ، بل كذلك عندما بحث الدساتير ونظم الدولة . انه يقيم نظريته السياسية بعد التقصى والاستقراء .

لم يكن أرسطو صاحب المنطق فقط ، بل يمكن القول انه صاحب كل علم ، وواضع أسس معظم فروع العلوم الطبيعية . فهو صاحب الحيوان ، وهو صاحب النفس الذى ظل كتابه فى علم النفس عمدة لهذا العلم عشرين قرنا من الزمان . وقد استمرت نظرية العناصر الأربعة حتى القرن الثامن عشر هى النظرية السائدة فى العلوم الطبيعية . وهكذا نجد أن فلاسفة العصر الوسيط سموه بحق « المعلم الأول » ، واستمرت كتبه هى العمدة التى يعول عليها ، والأصل الذى يعد أقصى ما يتمناه المرء أن يقوم بشرحها . ولذلك قامت المشائية كمدرسة على كتب المعلم الأول وشروحها . واشتهر الشراح فى هذه المدرسة شهرة مؤسسها ، ولا يمكن الفصل فى هذه المدرسة بين المعلم الأول وبين شراحه . وكيف يمكن هذا الفصل ولم تظهر كتبه الا بعد ثلاثة قرون من الزمان ، ولم يكن ترتيبها على هذا النحو

الموجود بين ايدينا . ويبدو ان كثيرا من هذه الكتب من عمل المدرسة لا من عمل ارسطو وحده .

ولما توفى ارسطو تولى رياسة المدرسة ثاوفراسطس ثمانية وثلاثين عاما (٣٢٣ — ٢٨٦) ، ويعد المؤسس الثانى لمدرسة اللوقيون ، بخاصة أن أرسطو لم يستمر فى المدرسة الا ثلاثة عشر عاماً . وفد الى أثينا من جزيرة لسبوس وحضر على افلاطون فى الأكاديمية ، وعرف ارسطو فى ذلك الحين ، وتوطدت الصداقة بينهما ، ولما هجر ارسطو اثينا قبل وفاته بعام عهد برياستها الى ثاوفراسطس ، ووهب له فى وصيته المكتبة والمذكرات التى كان يلقى منها محاضراته ، والتى نشرت فيما بعد على انها مؤلفات المعلم الأول . وقد ذكرنا من قبل ان عدد الذين كانوا يحضرون دروسه بلغ الالفين ، ولعل هذا العدد كان يحضر دروس الخطابة والاخلاق وما اشبه . والأشبه أن الرقم مبالغ فيه . وقد تابع ثاوفراسطس جهود ارسطو فى تأسيس المدرسة واستكمالها ، فوسع الحديقة ، ونظم الأوقات والمناهج للتدريس . واشتهر بكتابه فى النبات ، وله فى هذا الفن كتابان فى الواقع هما تاريخ النبات ، وعلل النبات ، ظلا عمدة هذا العلم فى الزمن القديم والعصر الوسيط . والعرب يعرفون ثاوفراسطس ويبجلونه ، وترجموا كتبه . وجاء فى وصيته ما فحواه ان المال الذى أودعه عند هيبارخوس ينفق منه اولا على اتمام تجديد بناء المتحف وما فيه من تماثيل

الآلهة ، وثانيا أن يوضع فى المعبد تمثال ارسطو كما كان من قبل ، وثالثا تجديد بناء الرواق المجاور للمتحف بشرط أن يكون جميلا كما كان ، وان يوضع فى الرواق السفلى المناضد وعليها خرائط البلاد التى اجتازها الرواد المستكشفون . وايضا يجب اصـــلاح المذبح وتجميله . الى قوله : وانى أوصى باتمام تمثال نيقوماخوس فى الحجم الطبيعى ، وقد دفعت الأجر المتفق عليه للمثّال براكستيلس .... وانى أوصى ان تتالف هيئة المدرسة من هيبارخوس ، ونيلوس ، وسطراطون ، وقالينوس ، وديموتيموس ، وديمارتوس ، وقالستينمس ، وميلانتيس ، وبانقريون ، ونيقيبوس .

والوصية طويلة لم نذكر الا بعضـها لنبين كيف كان رئيس اللوقيون يفكر فى مصلحة المدرسـة حيا وميتـا ، وكيف كان يعنى بتجمـيلها ، كما وضح لنا عـــدد الخلفاء البارزين الذين كانوا يديرون أمور المدرسة . وهذه الهيئة أشبه شيء بمجلس ادارة للنظر فى جميع شئون المدرسة ، ويعد رئيس المدرسة رئيس مجلس الادارة .

تولى المدرسة اسطراطون من ٢٨٦ الى ٢٦٨ ق.م ، وقد اشتهر باسم اســـطراطون الطبيعى بسبب انقطاعه لبحث الطبيعة . وقد علم بطليمـــوس فيلاديلفوس الذى نفحه مبلغا عظيما من المال يضـــاهى ما أعطاه الاسكندر لأرسطو . وله مؤلفات كثيرة ذكر ديوجينس أسماءها ، كما اثبت وصيته التى جاء فيها انه يعهد برياسة المدرسة الى

« ليقون » لأن الآخرين اصبحوا اما طاعنين فى السن واما فى غاية الانشغال ، ويبدو من النظر فى وصية رؤساء المدرسة أن الرياسة كانت فى بعض الأحيان بالنص والتعيين ، كالحال فى تولية ليقون ، وفى بعض الأحيان الأخرى بالانتخاب من جماعة الفلاسفة الذين يديرون أمور المدرسة ويعيشون معا معيشة مشتركة .

واستمر ليقون حول نصف قرن رئيسا للمدرسة ، من ٢٦٨ الى ٢٢٥ ق.م . ولم يؤثر عنه الاشتغال بالعلم الطبيعى بل اتجه الى الأخلاق والسياسة والبلاغة . ومنذ ذلك الوقت بدأت مدرسة الاسكندرية تنتزع الراية من المدارس الأثينية التى لم يعرف عنها تجديد أو ابتكار .

ثم توالى الرؤساء على المدرسة . ويهمنا أن نتحدث قليلا عن الرئيس الحادى عشر وهو أندرونيقوس الرودسى ، وكانت مدته من ٧٨ الى ٤٧ قبل الميلاد . وترجع أهميته الى أنه هو المسئول عن ترتيب كتب ارسطو على النحو الموجود بين أيدينا الآن ، أو أنه هو الذى أعد كتب أرسطو للنشر على هذا النحو . ولسنا نقصد بالنشر أنه طبعها ، فلم تكن المطبعة قد اخترعت بعد ، وانما كانت الكتب تنسخ على لفائف من أوراق البردى أو رقائق الجلد . ويكفى أن تتصور « المكتبة » الملحقة بالمدرسة والأبنية التى تتسع لمثل هذه الكتب الضخمة . وقد احتذت برجامون والاسكندرية فى انشاء مكتباتها حذو مكتبة ارسطو .

ولعلنا نترك حديث المدرسة بعض الوقت لنتحدث عن قصة كتب أرسطو تلك القصة التي تشبه الأسطورة . ذلك ان ثاوفراسطس حين حضرته الوفاة أوصى بمكتبته الى زميله وصاحبه نيلوس ، وكان فى تلك المكتبة الخاصة مؤلفات أرسطو . ولما كان نيلوس مواطنا من طروادة بآسيا الصغرى ، فقد حمل الكتب معه هناك حيث انشأ حلقة افلاطونية — (وكان نيلوس يدرس بالأكاديمية مع ثاوفراسطس وأرسطو) . وحين أراد حكام برجامون انشاء مكتبة تنافس مكتبة الاسكندرية ، خشي ورثة نيلوس أن يَستَولى على مكتبتهم فأسرعوا باخفائها فى كهف ، وظلت حبيسة المغارة قرنا ونصف قرن ، الى أن سمع بخبرها ابيليقون الضابط المرتزق فى جيش ميثريادس ، وكان جماعا للكتب ، فاشتراها بثمن بخس . وكانت الرطوبة قد محت كثيرا من الكتابات الموجودة باللفائف ، ولم يستطع أبيلليقون ان يرتب هذه المؤلفات ، وأن يصدر منها نشرة صحيحة . وأرسلت الكتب الى روما ، حيث أراد تيرانيون النحوى أمين مكتبة شيشرون أن يرتب الكتب ، ولم يفلح . أما النشرة الصحيحة فهى تلك التى أشرنا اليها من عمل اندرونيقوس الروديسى . ويعد عمله فى هذا الترتيب والنشر شرحا لمؤلفات أرسطو . فهو أول شارح .

احتاج أرسطو الى شراح لأن العهد كان قد بَعُد بين تعليمه فى القرن الرابع قبل الميلاد وبين العصور

الجديدة بعد ثلاثة قرون ، اى منذ القرن الاول قبل الميلاد . وكانت فلسفات جديدة قد ظهرت الى الوجود وأصبحت هى السائدة ، كالرواقية ، والابيقورية ، والاسكندرانية ، ثم الأفلاطونية المحدثة . ولما تدهورت مباحث الفلسفة أخذ المشتغلون بها من المتأخرين يخلطون بين هذه الفلسفات كلها على الرغم من أن الأسس التى تقوم كل منها عليها مختلفة . هذا الى أن أوائل الخلفاء على مدرسة أرسطو لقرب عهدهم منه كانوا يحسنون فهم كتبه واتجاهاته ، فلما انقضى ذلك الرعيل الأول خلف من بعدهم خلف اصبحت هذه المؤلفات بالنسبة اليهم أشبه بالطلاسم التى تحتاج الى تفسير أو الى شرح . ومن هنا ظهرت الحاجة الى الشراح .

والشراح للمشائية كثيرون ، وصلت بعض كتبهم الى العرب الذين كانوا على معرفة وثيقة بهم ، ولكن أشهر الشراح باطلاق بالنسبة الى العالم العربى الاسكندر الأفروديسى فى القرن الثالث بعد الميلاد وثامسطيوس فى الرابع بعد الميلاد وسمبلقيوس فى القرن السادس بعدالميلاد. وقد اتصل العرب بهذه الحركة فكان ابن رشد من أكبر شراح أرسطو لا تقل منزلته عن الاسكندر الأفروديسى أو ثامسطيوس ، وقد نقلت شروح ابن رشد الى اللغة اللاتينية، وعرفت أوربا ارسطو والمشائية عن طريق ابن رشد .

ولا تزال مدرسة ارسطو ، على الرغم من أنها أغلقت نهائيا ابوابها فى أثينا عندما طرد الامبراطور جستنيان

الفلاسفة سنة ٥٢٩ ، حية حتى اليوم ، ونقلت أفكارها الى جميع اللغات ، ولا يزال منطق أرسطو مستخدما ، ولا تزال اتجاهاته الفلسفية الرئيسية باقية ، وعلى راسها أن الفلسفة هى العلم بالموجود ، أو هى العلم بالعلل الأولى والغايات الأخيرة وبقيت الأرسطية ولا تزال عنوانا على تفسير الموجودات بالهيولى والصورة ، أى بمبداين لا بمبدا واحد ، والقول بالقوة والفعل باعتبار أن القوة تقابل المادة والفعل يقابل الصورة ، وعلى القول بنظرية الوسط فى الأخلاق .

الرواق والحديقة

كانت المدارس الفلسفية فى اليونان كثيرة ، اشرنا الى ابرزها وأهمها وأعظمها أثرا فى تاريخ الفكر البشرى ، وورد فى اثناء ذلك ذكر بعض المدارس التى لم تلبث ان انقرضت بموت اصحابها . وفى أواخر القرن الرابع وأوائل الثالث قبل الميلاد ظهرت أربع مدارس هى الكلبية والشكاك والرواقية والابيقورية ، وأشهرها الرواقية والابيقورية ، فالرواقية نسبة الى مكان التعليم فى الرواق ، والابيقورية نسبة الى صاحبها ابيقور ، الذى كان يعلم فى الحديقة .

وعلى الرغم من زوال المدرستين منذ القرن الأول للميلاد تقريبا الا أن روح الرواقية لا تزال سارية حتى اليوم ، على حين اكتسبت الابيقورية معنى منحرفا ، وأصبح الشخص الذى يوصف بانه ابيقورى انما يدل ذلك على انهماكه فى الشهوات واسرافه فى الملذات .

نبدأ بالحديث عن الرواقية فنقول : ان الذى أسس هذه المدرسة هو زينون الرواقى ، أصله من مدينة أكتيوم بجزيرة قبرص ، وهى مدينة يونانية استقر بها مهاجرون من فينيقيا التى تقع على الشاطىء المقابل للجزيرة . ويروى أنه خرج

فى تجارة ففرقت السفينة على مقربة من بيرايوس ميناء أثينا ، فلما نجا توجه الى أثينا ، واستقر بها ، ودرس فيها ، وكان فيما يقال فى الثلاثين من عمره . فلما استقر به المقام اشترى من وراق كتاب زينوفون عن سقراط وهو المذكرات المشهورة ، فأعجب به وسأل : اين يوجد رجل مثل سقراط ؟ فأشار عليه الوراق باتباع أقراطيس الكلبى . وتنقل زينون عشرين عاما بين المدارس الفلسفية فى أثينا ، ثم أخذ يعلم الفلسفة فى رواق مشهور بأثينا كان محلى بنقوش بوليجنوتس أشهر الرسامين اليونانيين فى القرن الخامس قبل الميلاد . وكان ذلك الرواق فيما مضى منتدى للأدباء والشعراء يلتقون فيه ، وكان الى ذلك مباحا لكل طارق ، فلما اتخذه زينون مكانا للتعليم سمى واتباعه بالرواقيين .

الواقع كانت طريقة التعليم فى اليونان كما ذكرنا تتم بين المعلم وتلاميذه اما فى رواق ، واما على ممشى بين الأشجار ، اى فى حديقة . فالأكاديمية — وهى التى سماها العرب اقاذيميا — كانت فى الأصل حديقة سميت باسم البطل اكاديموس . وكان كبار السفسطائيين الذين علموا فى بيوت اشراف اثينا يلقون دروسهم وهم يمشون فى الرواق . ذلك أن القصور كانت تبنى بحيث يفسح فيها مكان لأروقة تقام على أعمدة تلقى ظلا يخفف من حرارة الجو . ولكن بعض المدارس اشتهرت تاريخيا بنسبتها الى خاصية معينة ،

مثل مدرسة المشائين ، وحديقة أبيقور ، ورواق الرواقية .

والرواقية مذهب تغير على مر الزمن ، فهى على يد مؤسسها زينون خلافها على يد ابكتيتوس أو مرقص أوريليوس مثلا . ولكنها على الرغم من تطورها ، وعلى الرغم من هجرها لاتجاهات مادية أو طبيعية ، فقد بقى لها طابع عام لا يزال حتى اليوم يميزها عن أى مدرسة فلسفية أخرى . والرواقى صفة تطلق — وبخاصة فى اللغات الأوربية — على الشخص الذى يمتاز بثلاثة أمور كلها أخلاقية ، هى التحرر من الأهواء ، وعدم الخضوع للأفراح والأحزان ، والاستسلام لقانون القضاء . فاذا تيسر لأحد أن يملك زمام نفسه على هذا النحو ، فهو الحكيم الرواقى . ويمكن القول بعبارة أخرى ان الحكيم الرواقى هو الذى يصبر على أحداث الزمان ، ويرضى بما يجرى عليه ولا حيلة له فيه من العطاء أو الحرمان ، وهذا شىء ليس من اليسير ان يتقبله كل انسان .

والرواقية مدرسة عجيبة ، ظهرت فى بلاد اليونان ولكن مؤسسها غير يونانى ، وجمعت بين السيد والعبد على صعيد واحد ، ولم تميز بين شرقى ولا غربى ، ولم تستقر فى مكان واحد أو داخل جدران مدرسة واحدة ، ومع ذلك انتشرت تعاليمها ، ولا تزال سارية حتى الآن . وتطورت آراؤها على مر العصور ولكنها احتفظت بطابع اخلاقى يميزها عما عداها .

استمرت رسميا خمسة قـــرون ، من الثالث قبل الميلاد ، الى الثانى بعد الميلاد . أول ممثليها زينون وآخرهم مرقص أوريليوس المتوفى ١٨٠ ب.م . وتقسم المدرسة عادة الى قديمة ووسطى وحديثة ، فالقـــديمة فى أثينا ويمثلها زينون وكليانتس وكريسيبوس ؛ ووسطى يمثلها بناثيوس وبوزيدونيوس ؛ وحديثة فى روما يمثلها سنيكا وابيكتيتوس ومرقص أوريليوس . ثم تسربت آراؤها الى المســـيحية واستمرت فى التراث الغربى حتى الوقت الحاضر . وقد كان لها أثر كبير على الحكام والملوك الذين اعتنقوا هذه الفلسفة حتى قيل ان معظم الملوك بعد الاسكندر المقدونى كانوا من اتباع الرواقية .

وتقوم الرواقية على مبدأين اساســيين مع التوفيق بينهما ، وهما الحتمية الكونية والحرية الانسانية . والأول منهما خاص بالطبيعة والثانى بالانسان . ذلك أن حوادث الكون محكومة بقوانين صارمة ، وليس ثمة فى نظر الرواقيين صدفة أو اتفاق . وعندهم أن كل شيء فى هذا العالم مسوق نحو غاية ومدبر لخدمة الانسان . وهذه هى نظرية العناية الالهية . وعلى الانسان أن يسعى بارادته ، ومحض حريته واختيـــاره الى أن يتوافق مع القـــوانين العامة للطبيعة . فالفضيلة اذن تقوم فى حرية الارادة الموافقة للطبيعة . وما دام الأمر كذلك فلا بد أن يكون الحكيم الرواقى سيد نفسه ،

لا يهمه فقر او غنى ، ولا تصده اى قوة خارجية عن الفضيلة .

ولما كانت آراء هذه المدرسة غير منفصلة عن حياة أصحابها ، فلنشرع فى الحديث عن أبرزهم ، مبتدئين بمؤسسها :

ذكرنا أن زينون الرواقى — وهو خلاف زينون الايلى تلميذ بارمنيدس — من أصل فينيقى ، ولد فى قبرص بمدينة اكتيوم ، وازدهر فى أوائل القرن الثالث من قبل الميلاد . وكان أبوه تاجرا ، فاشتغل زينون فى صباه بالتجارة ، وركب البحر متجها الى بلاد اليونان يبيع شحنة من الأرجوان . غير أن السفينة تحطمت ، فذهب الى اثينا ، وأخذ يدرس الفلسفة . ويحكى فى سبب ذلك أنه اختلف الى دكان ورّاق (أى صاحب مكتبة) ، وقرأ عنه مذكرات زينوفون التى روى فيها أحاديث سقراط ، فأعجب بالمحاورات اعجابا شديدا وسأل : أين يمكن أن يجد شخصا مثل سقراط ؟ ولقد ظلت شخصية سقراط المثل الأعلى للرواقية فى شتى عصورها ، اذ أعجب الرواقيون بموقفه فى المحاكمة ، ورفضه الهرب من السجن ، وهدوئه فى مواجهة الموت ، وعلى الجملة سيرته الأخلاقية الفاضلة . كما أعجب الرواقيون كذلك ببساطة سقراط فى الطعام والشراب والملبس ، وعدم مبالاته بالحر او البرد ، وعزوفه

عن الرفاهية والترف . من أجل ذلك اقترنت الرواقية بالزهد والأخلاق الفاضلة .

عاش زينون حتى بلغ التسعين ، وظفر بشهرة واسعة ، وكان له تلاميذ كثيرون فى المدرسة التى خلفه على رياستها كليانتس . اشتهر بأمرين الأول التمسك بأن الأرض مركز الكون ، ولذلك يجب الحكم على أرسطارخوس بالاعدام لالحاده بسبب قوله ان الشمس مركز الكون لا الأرض . والثانى قصيدته التى نظمها فى تقديس زيوس .

غير أن خليفته فى المدرسة وهو كريسيبوس (٢٨٠ — ٢٠٧ ق.م) هو الذى يعزى اليه تثبيت دعائم المدرسة ، وتنظيم المذهب ، والعناية بالمنطق ونظرية المعرفة . وكان زينون يقول ان الفلسفة بستان والمنطق سوره ، والطبيعة شجره ، والأخلاق ثمره ، وبذلك جعل الأخلاق لب الفلسفة والمباحث النظرية من طبيعة ومنطق تابعة لها . ولكن يبدو ان كريسيبوس أفرد للدراسة النظرية مكانا أوسع ، وبخاصة المنطق ، الذى أضحى جزءا من الفلسفة ، لا كما ذهب ارسطو آلة لتحصيلها فقط . ومن أقواله فى الأخلاق ان الرجل الفاضل سعيد دائما والشرير شقى أبدا ، وان النفس تبقى بعد فناء البدن الى ان يحين الاحتراق العام .

ثم انتقلت الرواقية الى روما غربا مع ظهور الامبراطورية الرومانية . وتعدل المذهب أولا على يد بناثيوس (توفى ١١٠ ق.م) الذى ادخل فى الرواقية عناصر افلاطونية

وهجر مادية المدرسة القديمة ، وكان صديقا لشيبيو ، كما اثر فى شيشرون صاحب الفضل فى نشر الرواقية بين الرومان . وقد تعلم بوزيدونيوس من بناتيوس وخلفه . وبوزيدونيوس اغريقى من سوريا ، شهد فى صباه نهاية الدولة السلوقية فى سوريا ، ودفعه ما رآه من فوضى الى الهجرة غربا . فذهب اولا الى أثينا حيث رضع لبان الرواقية فى ظل الرواق . غرب الى اقصى غرب الامبراطورية الرومانية فى شمال افريقيا واسبانيا وفرنسا . وقد تعلم شيشرون على بوزيدونيوس فى رودس وعنه اخذ هذا المذهب . وقد اتجه وجهة رياضية موفقا بين تعاليم أفلاطون الأصلية – لا تعاليم الأكاديمية التى اصطنعت مذهب الشك – وبين الأخلاق الرواقية .

ذكرنا أن الرواقية فى عصرها المتأخر اشتهرت برجال ثلاثة على رأسهم سنيكا (من ٣ ق.م الى ٦٥ ب.م) . أصله أسبانى ، عاش أبوه فى روما ، تثقف ثقافة سياسية هيأته للاشتغال بالسياسة فأصبح وزيرا للامبراطور كلاوديوس ، الذى نفاه الى كورسيكا بسبب عداوته لزوجته مسالينا . ثم استدعته أجريبا زوجة الامبراطور الثانية ، وعينته معلما لابنها البالغ من العمر احدى عشرة سنة . وهذا الصبى هو الذى أصبح فيما بعد الامبراطور نيرون . وهكذا كان سنيكا معلم الامبراطور ، كما كان أرسطو معلم الاسكندر ، ولكن شتان بين التلميذين ، وبين المعلمين .

وقد لقى سنيكا من تلميذه جزاء سنمار ، اذ غضب نيرون عليه عقب اتهـامه بالتآمر على حياته ومحاولة تنصـيب امبراطور آخر على العرش . وقد سمح له أن ينفذ حكم الاعدام على الطريقة الرومانية بأن ينتحر ، فاختار أن يقطع شريانه . ومع انه كان يزدرى المـال الا انه جمع ثروة كبيرة ، قيل انها بلغت مليونا من الجنيهات .

أما ابكتيتوس (٦٠ — ١٠٠ بعد الميلاد) فكان عبدا اغريقيا ، حرره نيرون واتخذه وزيرا . عاش فى روما وعلم بها حتى سنة ٩٠ ، الى أن نفاه الامبراطور دومتيان ، ولم يكن يحب أرباب الفكر والنظر ، مع من نفاهم من الفلاسفة . وذهب ابكتيتوس الى نيقوبوليس فى ابيروس ، حيث أخذ يعلم ويؤلف .

أما الامبراطور مرقص أوريليوس (١٢١ — ١٨٠) فقد عاش حياة رواقية فاضـلة . تميز عصره بوقوع كوارث عديدة من زلازل ، وأوبئة ، وحروب طويلة دامية . وكان ابنه الامبراطور كومودس من أسوأ الأباطرة سيرة ، ولكنه اخفى نواياه الشريرة عن أبيـه مدة حياته . وقد اشتهر مرقص أوريليوس بـكتابه الذى نشر بعـد وفاته ، وهو « التأملات » . وهو عبارة عن خواطر كان يدونها لنفسه ، ولم يكن يعدها للنشر . وقد اتهمت زوجته « فاوستينا » بفساد السيرة ولكن زوجها لم يشـك فى شرفها . وقد اضطهد أوريلوس المسيحيين لخروجهـم على دين الدولة

الذى كان يعتبره ضرورة سياسـية . وعلى الجملة عاش مرقص أوريليوس حسن السيرة نقى السريرة .

كانت فلسـفة ابكتيتوس ومرقص أوريليوس ملائمة للعصر الذى عاشا فيه ذلك العصر الذى تميز بالقلاقل والاضطرابات والكوارث ، ولم يكن ثمة أمل فى تحسين تلك الأحوال التى سارت من سيىء الى أسوأ حتى انتهى الأمر بسقوط الامبراطورية الرومانية . من أجل ذلك كانت الأخلاق الرواقية التى بشرا بها وسارا عليها أفضل اخلاق ملائمة لذلك الصبر ، اذ كانت تدعو الى الصبر على الأذى ، واحتمال المصائب والرضا بالقضاء ، أكثر منها رسالة أمل ورجاء .

وفلسفتهما متشـابهة الى حد كبير . ومن اقوال ابكتيتوس : اننا نعيش مساجين على الأرض ، وفى بدن أرضى . ومن أقوال مرقص أوريليوس : ما أنت أيها الانسان سوى روح ضئيلة تحمل على كاهلها جثة .

***

وقد أصبحت حديقـة أبيقور عنوانا على البحث الفلسفى فى الأخلاق واعتمادها على اللذة ، وعلى الصحبة الفلسفية لتبادل الآراء . وقد شاع عن ابيقور أن مذهبه هو الاقبال على اللذة ، والحق ان أحدا لم يظلم مثلما ظلم أبيقور ان فى سيرته أو فى مذهبه . وقد أشاع عنه خصومه

الشـــائعات والصقوا به التهم جـــزافا . واكبر الظن ان خصومه فى الفكر هم الرواقيون اصحاب الرواق والذين كانت مدرستهم تنافس حديقته . قيل مثلا أن أمه كانت كاهنة مشعوذة ، وكان يطوف معها من دار الى اخـرى يرتلان الأدعية الدينية . كما كان يساعد اباه فى مهنة تعليم الصبيان لقاء أجر ضئيل . ولو صحت الرواية السابقة عن أمه فيكون فى ذلك السر فى كراهيـــة أبيقور فيما بعـــد للخرافات الدينية التى تميزت بها تعاليمه .

أبوه أثينى استقر فى ســاموس ، وهناك انجب ابنـه أبيقور سنة ٣٤٢ ق.م ، وفيها أمضى الصـبى حداثته ، وشرع يدرس الفلسفة وهو فى الرابعة عشرة من عمره . وفى الثامنة عشرة ذهب الى أثينـــا يبغى أن يكون مواطنا اثينيا ، ولكن فى ذلك الوقت طرد المستعمرون من ساموس ، فلجأ مع أسرته الى آســيا الصغرى . وقد تعلم أبيقور المذهب الذرى على يد ناوزيفانس أحد أتباع ديمريطس .

بدأ يفتتح مدرسة فلسفية سنة ٣١١ فى ميتلين ، ثم فى لامباسكوس .

وفى سنة ٣٠٧ افتتح مدرسته فى اثينا ، وظل يعلم بها الى أن توفى سنة ٢٧٠ ، فكانت بذلك رابع مدرسة كبرى فى أثينا بعد الأكاديمية واللوقيون والرواق . وتعد حديقة أبيقور مدرسة منظمة كالثلاث الأخرى ، وهذا سر بقائها حتى نهاية القرن الأول قبل الميلاد ، اذ تعلقت بمكان ثابت ،

وكان لها رؤساء تولوا ادارتها بعد موت صاحبها . وهذا على عكس المدرستين اللتين أشرنا اليهما فى بداية هذا الفصل ، وهما مدرسة الكلبيين ومدرسة الشكاك .

اشترى أبيقور فى اثينا بيتا وحديقة هى التى كان يقوم بالتدريس فيها ، ومنذ ذلك الوقت أصبحت حياته هادئة لا يعكر صفوها سوى اعتلال صحته .

اشترك بالمدرسة منذ انشائها فى ميتلين اخوته الثلاثة وبعض الأصدقاء ، ولكن عدد التلاميذ أخذ يزداد فى أثينا . ولم تقتصر المدرسة على قبول طلبة الفلسفة فقط ، بل ضمت الأصدقاء والأطفال والعبيد والصواحب . وكان لاشتراك المرأة فى الحديقة أثره فى التشنيع على المدرسة ، وذريعة اتخذها خصومه لاتهامه بالباطل ، اذ لم يكن من المألوف فتح أبواب المدارس الفلسفية للمرأة ، فيما عدا مدرسة فيثاغورس التى كانت فى واقع الأمر فرقة دينية .

والرابطة الأساسية التى كانت تجمع بين أفراد المدرسة هى الصداقة . وكانت حياة الجماعة — أو الفرقة — فى المدرسة بسيطة جدا ، لا لأن تعاليم المدرسة كانت تنصح بالبساطة ، كما هى الحال فى سائر المدارس الأخرى ، بل لحاجتها الى المال . وكان طعام أبيقور الخبز والماء ، وكذلك باقى التلاميذ ، وفى ذلك كفاية لحفظ الحياة . ومن أقوال أبيقور : ان بدنى لينتشى حين أعيش على الخبز والماء ، وانى

لابصق على اللذات المترفة ، لا لذاتها ، بل بسبب ما تجلبه من عواقب غير حميدة .

اعتمدت المدرسة على الهبات التى كان يطلبها صاحبها من الأصدقاء ومن التلاميذ ، وهذه الهبات بعضها من الطعام الذى يحتفلون به فى اعيادهم ، وبعضها من المال . وقد جاء فى احدى الروايات انه سال احدهم أن يهب المدرسة جبنا ياكلونه فى العيد .

وكان ابيقور سليط اللسان على أصحاب الفضل عليه فى تعلم الفلسفة ، اذ أنكر كل فضل لديمقريطس ولوقيبوس صاحبى المذهب الذرى ، ووجه اليهما اقذع الشتائم . والمذهب الأبيقورى مادى ذرى من جهة النظر الى الفلسفة الطبيعية ، وداعيا الى اللذة فى الاخلاق .

اللذة هى الخير ، وهى بدء الحياة السعيدة ونهايتها .

ومن اقواله التى حفظت فى كتب المؤرخين : لست ادرى كيف أتصور الخير اذا نزعت عنه لذة الذوق ، ومتعة المراة ، وبهجة السمع والبصر .

ومن أقواله أيضا : أول كل خير وأساسه لذة البطن ، وحتى الحكمة والثقافة فانهما يرجعان اليها .

ومع أن اللذة هى مبدأ الحياة الا أن الانسان لا ينبغى أن يقبل عليها دون نظر الى عواقبها ، فان كانت وخيمة فلا بد من التضحية بها ، بل تحمل الألم المؤقت فى سبيل اللذة المستقبلة . واللذة عنده هي البعد عن الألم وتجنبه اكثر

منها اقبال على المتعة . وهذا هو السبب فى الزهد فى الطعام لأن عواقب التخمة وخيمة . والصلة الجنسية لا تؤدى الى خير أبداً ، والسعيد السعيد من لم يُصَب منها بضرر . أما رأس الفضائل فهى الصداقة ، وهى لا تنفصل عن اللذة ، اذ بدونها لا يعيش المرء آمنا بغير خوف .

والخوف محور آخر لفلسفة أبيقور ، وتجنبه هو الذى يحقق اللذة . ومن أقواله فى ذلك : لا تسرف فى الأكل خشية سوء الهضم ، ولا فى الشرب خشية ما يحدث صباح اليوم التالى . واحتقر السياسة والمرأة وسائر الأعمال الشهوانية . على الجملة : عش واتق الخوف .

ومصادر الخوف أمران — فى زمانه طبعا — الدين والموت ، وهما متصلان ، لأن الدين الذى كان سائدا كان يعلم أن الموتى أشقياء . ولذلك نادى بفلسفة تستبعد من الدين ما يجعله يبعث الخوف . ومذهبه أن الآلهة لا تتدخل فى شئون البشر ، وأن الروح تفنى بفناء البدن . انه لا ينكر وجود الآلهة ، فهى موجودة ولكنها لا تتدخل فى أعمال البشر ، ولا تعنى بهم ، فلا حاجة للخوف منها ، أو اغضابها واستجلاب رضائها ، أو الذهاب الى الجحيم بعد الموت .

وفلسفته الطبيعية ذرية ، وهى استمرار لفلسفة ديمقريطس . فالعالم مركب من ذرات وخلاء ، ولكن الذرات ليست خاضعة دائما لقوانين طبيعية صارمة ، اى لفكرة الضرورة التى سادت الفلسفة اليونانية وجاءت من الدين .

والذرات عند أبيقور لها ثقل ، ومن أجل ذلك تقع باستمرار لا نحو مركز الأرض بل الى « تحت » . وبين حين وآخر تنحرف بعض الذرات عن السقوط الى تحت متأثرة بارادة باطنة حرة . والنفس مادية ومركبـــة من ذرات تتخلل سائر أجزاء البدن .

***

ثم خلف أبيقور على الحديقة رؤساء يذكرهم ديوجينس لايرتوس فى تاريخه ، ولكن لم يشتهر أى واحد منهم ، اللهم الا لوكريتيوس الذى عاش فى روما وكتب قصيدته المشهورة « فى طبيعة الأشـــياء » ، شرح فيها فلسفة أبيقور ، ولم تعرف القصيدة فى زمانه (عاش ٩٩ ــ ٥٥ ق . م) بل فى عصر النهضة .

مدرسة الإسكندرية

لم تكد مدرسة الاسكندرية تظهـر الى الوجود حتى كسفت بنورها مدارس أثينا ، وانتزعت منهـا راية العلم والفلسفة ، واستمرت تتزعم الحركة الفكرية زهاء ثمانيـة قرون ، من القرن الثالث قبل الميلاد عند انشائها الى القرن الخامس بعد الميلاد .

تميزت المدرسـة خلال هذه الفترة من الزمان بنزعتها العلمية وبخاصة العلم الرياضى ، ولم يؤثر عنها فى عصرها الأول قبل الميلاد الاشتغال بالفلسفة . ولكنها منذ القرن الأول بعد الميلاد أخذت تنظر فى فلسفة الأديان بوجه خاص ، بعد ظهور المسيحية والصراع الفكرى بينهـا وبين وثنية اليونان والرومان وديانة قدماء المصريين فضـلا عن ديانات أخـرى وافدة من الشرق مثـل اليهودية والزرادشتية والمانوية . وفى خضم هذه التيارات الفكرية والدينية ظهر فى الاسكندرية « الفيثاغورية الجديدة » تحاول التوفيق بين الأديان ، وهذه الفيثاغورية الجديدة هى الأصل الذى نبعت منه جماعة « اخوان الصفا وخلان الوفا » فى القرن الرابع

الهجرى عند المسلمين . وظهرت كذلك « الأفلاطونية المحدثة » تحاول التوفيق بين أفلاطون وأرسطو مع ميل الى الأفلاطونية ، وهذه النزعة هى التى رفع رايتها آخر كبار الفلاسفة فى الزمن القديم ، وهو أفلوطين الذى سنفرد لمدرسته حديثا خاصا فيما بعد .

لم يكن لثغر الاسكندرية وجود قبل أن ينشىء المدينة الاسكندر الأكبر عقب غزو مصر . توفى الاسكندر سنة ٣٢٣ ق . م بعد أن وضع حدا للثقافة الاغريقية التى كانت تتميز بالتمسك بالفكر اليونانى وقصره على نفسها ، وبدأت الثقافة « الهلنستية » أى تلك التى امتدت خارج بلاد اليونان فى سائر العالم المعروف فى ذلك الزمان والذى أخضعه الاسكندر لسلطانه يبغى انشاء « عالم واحد » وثقافة واحدة . ولكن المؤسس الحقيقى لهذه المدينة التى قدّر لها أن تكون مركز العلم والفلسفة والثقافة فى العالم الجديد هو بطليموس الأول ، الذى حكم مصر بعد موت الاسكندر ، وكان صديقه ورفيق صباه ، واشترك معه فى حملات آسيا الصغرى ، فلما أسس الاسكندرية ، دفن فيها رفات الاسكندر ، وأنشأ بها الفنارة احدى عجائب الدنيا السبع ، وأنشأ المتحف والمكتبة . استمر حكمه حتى سنة ٢٨٥ ، فلما تولى ابنه (٢٨٥ ــ ٢٤٧) بطليموس فيلادلفوس كان حكمه امتداداً لحكم أبيه ، ثم بلغت دولة البطالسة ذروة مجدها فى ظل بطليموس الثالث (٢٤٧ ــ ٢٢٢) .

كان بطليموس يعرف ان مجد الدول وارتفاع منزلتها وخلود ذكرها يرجع فى المحل الأول الى ما يسودها من علم وعرفان ، وان دولا كثيرة كانت تمتاز بوفرة المال أو قوة السلطان ومع ذلك زالت ولم يبق لها فى التاريخ ذكر . لذلك اتجه بطليموس فى منافسته لأثينا بوجه خاص الى انتزاع زعامتها الفكرية عنها ، وذلك بانشاء مدرسة فلسفية على نسق الأكاديمية أو اللوقيون ، فكانت مدرسة الاسكندرية اقرب الى اللوقيون منها الى الأكاديمية بحكم أن ديمتريوس وسطراطون اللذين وضعا دعائم المدرسة كانا خليفتين على اللوقيون . ولكن النظام الذى جرت عليه المدرسة لم يكن مشابها تماماً لمدرسة أرسطو ، لأسباب كثيرة ، على رأسها ان اللوقيون ارتبطت باسم مؤسسها وهو أرسطو واستمرت تبث تعاليمه المشائية ، ولم تتوقف مدرسة الاسكندرية على أى شخص أو ترتبط بأى عالم أو فيلسوف ، وانما كانت مؤسسة ثقافية تهيىء للباحثين فرصة البحث وللدارسين مهمة الدراسة . انها أشبه بأكاديمية علوم أو معهد عال للأبحاث ، مقره فى ذلك الزمان « المتحف » وباليونانية موزايوم ، ومنه اسم المتحف حديثا كالمتحف المصرى بالقاهرة **Museum** ، غير أن المتاحف الحديثة أصبحت مقراً للآثار القديمة ، فتغير بذلك معناها عن الزمن القديم .

والمتحف معبد أو هيكل لربات الفنون (موزايوس) التسع وهن بنات زيوس ونيموسينى ، وهذه التسع هى

ربة التاريخ ، والشعر الغنائى ، والكوميديا ، والتراجيديا ، والترانيم ، والرقص والموسيقى ، وشعر الغزل ، والفلك ، والشعر الحماسى . وهذا يدل على أن اتجاه المتحف كان فى الأغلب نحو الشعر بأنواعه المعروفة فى اليونانية ؛ ولكن شهرة المتحف قامت على العلوم أكثر منها على الآداب والشعر .

بنى المتحف جزءاً من القصور الملكية ، له طريق عام ، ورواق ذو مظلة تحفه الأرائك ، ينتهى الى بيت واسع يعقد العلماء المتشاركون فى المتحف اجتماعاتهم فى قاعته الكبيرة . وكان يشغل عدة أبنية فى المدينة الملكية المطلة على الميناء ، وهذه الأبنية مهيأة لشتى الأغراض العلمية . ويعيش أعضاء المدرسة معاً ، وما يملكونه فهو شركة بينهم ، ويرأسهم كاهن كان الملك يعينه فى القديم .

والمتحف أدنى الى أن يكون معهدا للبحوث منه الى أن يكون جامعة أو مدرسة . وليس بين يدينـا من الوثائق ما يؤيد أنه مكان للتعليم . انه تعليم بين أستاذ ومعاونيه ، ولم يكن ثمة ادارة أو امتحانات ، أو درجات جامعية . وكان المتحف مزوداً بالأدوات والأجهـزة الفلكيـة ، وأدوات التشريح ، وحدائق للنبات . ومن الطبيعى أن يستغرق بناء المتحف ونموه زمنا وأن يحتاج مع ذلك الى الاستقرار ، وقد كفل له ذلك كله بطليموس الأول والثـانى والثالث ، وكان لتجربة ديمتريوس واسطراطون الفضل فى ارساء النظـام الوحيد للمتحف ، وكان كل منهما رئيسا لمدرسة عريقة ،

وعالما فاضــــلا . تعـــلم اسطراطون على يد ثاوفراسطس واستدعاه بطليموس ليعلم ابنـــه ســـنة ٣٠٠ ق . م ، واستمر يعمل حتى سنة ٢٨٨ الى أن رجع لرياسة اللوقيون بعد وفاة ثاوفراسطس .

ومن أشـــهر العلماء الذين اقترن اسمهم بمدرســـة الاسكندرية فى عصرها الأول أوقليـــدس وأرشميدس ، وأبولونيوس ، وأبولودورس . تعلم أوقليدس أولا فى اثينا ، ودرس الرياضيات فى الأكاديمية . وعقب اضطراب الأمور فى اثينا ذهب الى الاسكندرية ، وعاش فى ظل بطليموس الأول والثـانى . وتروى عنه اقاصيص كثـــيرة نذكر منها أن بطليموس سأله ذات مرة أيوجد طريق أقصر الى الهندسة من طريق « الأصول » ؟ فأجابه : لا يوجـــد طريق ملكى للهندسة . و « الأصول » هو الكتاب الذى الفه أوقليدس حاويا كل شيء عن الحساب والهندسة حتى زمانه ، ويعرف باسم « أصول الهندسة » وهذه هى الترجمـــة العربية للعنوان فى عصر الترجمة . وقد ظل هذا الكتاب بترتيب نظرياته الهندسية أساساً لهذا العلم حتى اليـوم ، نعنى بالنسبة للهندسة الأقليدية . وسائر الرياضيين الذين لمت أسماؤهم بعد ذلك انما كانوا شراحا لأوقليدس ، واذا كانت لهم اضافات فى هذا الباب فهى فى حل بعض مســـائل ، أو ترتيب وتبويب يوضح هذا العلم للطلبة . وقد عرف العرب هؤلاء الرياضيين الذين ظهـــروا في الإسكندرية في عصرها

المتأخر قبل الفتح ، مثل بابوس عاش فى القرن الثالث بعد الميلاد ، وثاون الاسكندرى من القــرن الرابع ، وبرقلوس ومارينوس وكلاهما من القرن الخامس .

ومن كبار الرياضيين فى مدرسة الاسكندرية فى عصرها الأول ، أرشـــميدس ، وأرسطارخوس ، وأبوللونيوس . وأولهما أشهر من أن يذكر ، ولا يزال طلبة المدارس حتى اليوم يحفظون قاعدته المشهورة فى علم الطبيعة عن الأجسام الطافية .

ومن أشهر علمائها فى عصرها الثانى بطليموس الفلكى صاحب المجسطى . عاش بالاسكندرية فى القرن الثانى بعد الميلاد ، ونبغ فيها ، وكانت مصر قد خضعت للحكم الرومانى وانقرضت دولة البطالسة ، ولكن الثقافة والعلم واللغـــة استمرت باليونانية . عرف العرب كتابه الذى ترجمـوه بقولهم « المجسطى » فسار هـذا الكتاب بينهم ســـيرة « أصول » أقليدس . ومن أبرز الأسس التى قام عليهـا النظام الفلكى فى هذا الكتاب القول بأن الأرض مركز المجموعة الشمسية ، ويعرف هذا بالنظام البطلمى ، وظل مأخوذا به الى أن جاء كوبرنيق فأحدث ثورته المشهورة فى علم الفلك قائلا ان الأرض هى التى تدور حول الشمس .

وقد حدثنا العرب عن مدارس التعليم بالاسكندرية فى عصرها المتأخر ، وقد حفظ لنا مؤرخوهم روايات كثيرة عن تلك المدارس ، ولا حيلة لنا الا الأخذ بها . روى القفطى فى

كتابه أخبار الحكماء أن الاسكندرانيين هم « الذين رتبوا بالاسكندرية دار العلم ومجالس الدرس الطبى ، وكانوا يقرءون كتب جالينوس ويرتبونها على هذا الشكل الذى تقرأ اليوم عليه ، وعملوا لها تفاسير وجوامع تختصر معانيها ويسهل على القارىء حفظها وحملها فى الأسفار . فأولهم — على ما رتبه اسحاق بن حنين — اصطفن الاسكندرانى ، ثم جاسيوس ، وانقيلاؤس ، ومارينوس . فهؤلاء الأربعة عمدة الأطباء الاسكندرانيين ، وهم الذين عملوا الجوامع والتفاسير » .

نقلنا هذا النص على طوله لنبين أن المدارس الفلسفية كانت موجودة بالاسكندرية منذ أنشئت حتى الفتح العربى ، ولم ينقطع « دار العلم » أو « مجلس التعليم والدرس » منذ أن كان ذلك فى المتحف وظل فى الأغلب مستمرا فيه الى أن تخرب فى القرن الثالث وظهرت مدارس أخرى ، اذ فى اكبر الظن أن الاسكندرية كانت تحتضن أكثر من مدرسة . ولا بد على كل حال فى التعليم من مقر أو دار أو مجلس ، بعبارة أخرى من مدرسة ثابتة تشد اليها الرحال .

ولا تحسبن أننا حين قصرنا الحديث على الرياضيين والفلكيين والأطباء قد بعدنا عن موضوع المدارس الفلسفية ، بل ذلك من صميم الفلسفة . لأن الفلسفة فى عصرها الذهبى كانت تعتمد على العلم ، وكان الفلاسفة علماء . وحين انشىء المتحف نهض بانشائه رئيسا اللوقيين ، وهما اللذان وجهاه

هذه الوجهة العلمية . وعندما انتقلت الفلسفة الى العرب كان فلاسفتهم علماء أو أطباء أو رياضيين وجمعوا بين العلم والفلسفة ، مثل ابن سينا وابن رشد .

لم يكن المتحف مقر مدرسة الاسكندرية وحده وانما انشىء معه شيء آخر لا تتم المدارس الا به ، وهذا الشيء هو المكتبة . وقد عرفت المكتبات من قبل انشاء الاسكندرية ، وبخاصة فى اثينا كعبة الثقافة العالمية منذ القرن الخامس قبل الميلاد . ثم شرعت مدن أخرى تحذو حذوها وتنشىء مكتبات تحتفظ فيها بمؤلفات الشعراء والأدباء والعلماء والفلاسفة . ولم يشأ بطليموس الأول أن تكون عاصمة ملكه اقل شأنا من غيرها من المدن ، فأمر بانشاء مكتبة ظفرت فى المستقبل بشهرة عظيمة لكثرة ما كانت تحتوى عليه من مؤلفات .

أسس المكتبة ديمتريوس الفاليرى (من مدينة فاليرون فى اتيكا) ، عاش الشطر الأكبر من حياته فى القرن الرابع ، كان تلميذ ثاوفراسطس ، واشتغل بالسياسة واصبح حاكم اثينا من سنة ٣١٧ الى ٣٠٧ ، ثم نفى من اثينا فرحب به بطليموس وعهد اليه بانشاء المكتبة ، التى استغرقت زمنا ورعاية وعناية لاستكمالها ، بغية الحصول على الكتب المختلفة فى شتى الفنون .

كانت هيئة الكتاب مختلفة اختلافا بيّنا عن هيئته المالوفة لنا فى الوقت الحاضر . كتاب اليوم مطبوع على ورق رقيق

وفى حجم دقيق . وكتاب الأمس مخطوط على ورق البردى وحجمه كبـــير . كانت الكتب عبارة عن لفائف من ورق البردى ، ولذلك كانت تشغل مكانا واسعاً ، وبخاصة اذا اشتملت المكتبة على آلاف كثيرة من الكتب . وقد بلغ عدد ما فى مكتبـــة الاسكندرية ٢٠٠,٠٠٠ فى عهـــد مؤسسها بطليموس الأول ، ونمت حتى بلغ عدد كتبهـــا ٧٠٠,٠٠٠ زمان يوليوس قيصر .

فكيف تسنى جمع هذا العدد الغزير ؟ لقد اتخذ ملوك البطالسة كل سبيل للحصول على الكتاب ، ولم يبخلوا بمال أو سلطان . ومن هذه الوسائل أن بطليموس الثالث أصدر أمره بأن يؤخذ من كل وافد فى البحر ما معه من كتب ، فاذا لم تكن موجودة بالمكتبة أخذت منه وأعطى بدلها نسخة يقوم النساخ بانجازها . وكان لرؤساء المكتبة الفضل الأكبر فى اكتسابها هذه السمعة الطيبة . وهذه قائمة بأسماء الأوائل منهم :

١ ــ ديمتريوس الفاليرى	٢٨٤ ق . م
٢ ــ زنودوتس الافسوسى	٢٨٤ ــ ٢٦٠
٣ ــ كاليماخوس القورينائى	٢٦٠ ــ ٢٤٠
٤ ــ ابولونيوس الروديسى	٢٤٠ ــ ٢٣٥
٥ ــ اراتستنس القورينائى	٢٣٥ ــ ١٩٥
٦ ــ ارستوفانس البيزنطى	١٩٥ ــ ١٨٠

٧ ـ ابولونيوس ايدوجرافس ١٨٠ ـ ١٦٠
٨ ـ ارســـطارخس ١٦٠ ـ ١٤٥

ونود أن نقف بعض الشيء عند اثنـــين كاليماخوس واراتستينس ، لأن الحديث عنهما يعرج بنا على مدرسة فلسفية هى المدرسة القورينائية . سميت كذلك نسبة الى « قورينا » فى ليبيا ، ومكانها الآن مدينة شحات . انشأ المدينة مهاجرون من جزيرة كريت فى القرن الســابع فى الجبل وعلى مقربة من البحر ، وجعلوها بما شيدوه من معبد وملعب (جمنزيوم) ومحكمة وغير ذلك مدينة يونانية تماماً . وقامت بها مدرسة فلسفية أسسها ارستبوس صاحب المذهب الأخلاقى الذى اشتهر بالأقبال على اللذة ، وحقيقة المذهب انه يهدى المرء الى « فن الحياة » . وفى قورينا عمل ثيودورس الرياضى الذى تعلم فى اثينا ، وعاد الى موطنه ، وزاره أفلاطون فى شـــبابه وعاش معه زمنا . ويبدو أن المدرســـة جمعت بين الدراســـات الأدبية والفلســـفية والرياضية ، فكان اراتستينس من أشهر الرياضيين .

ولد كاليماخوس بقورينا حول سنة ٣٠٠ ، وبها درس ، ثم أكمل تعليمه فى أثينا ، وعين رئيسا لمكتبة الاسكندرية سنة ٢٦٠ وتوفى ٢٤٠ . وهو الذى صنف كتب المكتبة ، وعمل كتالوجا قسمه ثمانية أقســـام بحسب المؤلفين : (١) شـــعراء الدراما (٢) شـــعراء الحماسة والغناء (٣) المشرعون (٤) الفلاسفة (٥) المؤرخون (٦) الخطباء

(٧) البلغاء (٨)منوعات . واكبر الظن أن الرياضيين والأطباء والعلماء كانوا تحت القسم الخاص بالفلاسفة .

عاش اراتستينس (٢٧٦ ـ ١٩٤) فى القرن الثالث ، تعلم بقورينا ثم درس فى اثينا ، واختص بالرياضيات والفلك والجغرافيا دعاه بطليموس الثالث وعينه عضوا بالمتحف ، ثم رئيس المكتبة سنة ٢٣٥ واستمر بها الى ان توفى اى زهاء أربعين عاماً . وقد اشتهر اراتستينس بأن قياسه لمحيط الأرض كان أقرب قياس الى الصواب ، وذلك على اساس قياس المسافة بين الاسكندرية واسوان وهى مسافة معروفة ، واعتباره أن أسوان تقع على مدار السرطان ، أى خط عرض ٢٣ تقريبا . وهنا يحق لنا التساؤل عن الصلة بين المتحف والمكتبة ، فقد رأينا علماء شغلوا منصب الرياسة بالمكتبة ، ولعلهم مارسوا نشاطهم العلمى بها . واكبر الظن أن المكتبة ولو أنها كانت مستقلة الا أنها كانت تخدم المتحف الذى يستعين علماؤه بما فيها من مؤلفات . مهما يكن من شىء ليس بين أيدينا ما يلقى ضوءاً على هذه الصلة .

مرت بالمكتبة محن كثيرة انتهت الى زوالها . وأول محنة أصابتها عند حصار يوليوس قيصر للاسكندرية ، وكانت المكتبة عامرة مزدهرة ، فلما أحرق قيصر الميناء امتدت ألسنة النيران الى المكتبة . ويقال ان انطونيو وهب كليوبطرا ٢٠٠,٠٠٠ كتاب من برجام سنة ٤١ ق.م ، تعويضا لما فقد منها .

ولما بدأ ساعد المسيحية يشتد شيئا فشيئا منذ القرن الثـانى ، كان المسيحيون يعتقـــدون أن المكتبة والمتحف جناحان لقلعة الكفر والالحاد . ونحن نعلم أن المسيحية لقيت عناء شديدا فى مكافحة الوثنية القائمة على الفلسفة اليونانية ، وكان الصراع بين المسيحية دينـــا ، والوثنية ثقافة وادبا وفلسفة صراعاً مراً لم تستطع المسيحية أن تتغلب عليها الا فى القرن الرابع ، وحين تنصر الأباطرة أنفسهم فأيدوا الدين بسلطان الدولة . وقد دمرت المكتبة فى عهد الامبراطور ثيودوسيوس وذلك بأمر البطريق ثيوفيل بطريق الاسكندرية (٣٨٥ ـ ٤١٢) الذى كان معاديا للوثنية . وقد شاع أن عمر بن الخطاب هو الذى امر عامله عمرو بن العاص بحرق المكتبة ، وهى قصة العرب منها براء ، لأن المكتبة كما راينا لم يكن لها وجود عند الفتح العربى .

ومن المعروف تاريخيا أن ثمة مدارس فلسفية مسيحية نشأت فى الاسكندرية ، واستطاعت هذه التعاليم المنظمة أن تكافح وثنية اليونان . واقدم هذه المدارس تلك التى أنشأها بنتينس (Pantaenus) الذى راس المدرســـة الرواقية فى الاسكندرية ، وكان قد تحول الى المســيحية . ثم تولى رياسة هذه المدرسة كليمنت الاسكندرى ، ولد بالاسكندرية ١٥٠ ق . م ، وتحول الى المسيحية بعد أن درس فى عدة مدن ، وأعجبه تعليم بنتينس فتبعه ، وراس المدرســـة

سنة ۲۰۰ ق . م . ومن هذه المدرسة ظهر أوريجين الذى اخذ من كليمنت من جهة ، ومن امونيوس سكاس من جهة اخرى . ويعد أوريجين مؤسس الأفلاطونيـة المحدثة فى رواية ، كما يعـد أمونيوس سكاس (۱۷٥ – ۲٥۰) هو المؤسس فى رواية اخـرى . ولد أمونيـوس من أبوين مسيحيين ، ولكنه ارتد عن المسيحية الى ألفلسفة اليونانية وديانتها . وكانت تعاليمه شفوية سماعية ، ويقال أنه وفق بين تعاليم افلاطون وارسطو .

مدرسة أفلوطين

اذا كانت بوادر الأفلاطونية المحدثة بدات من أوريجين ، فان حامل لوائها بمعنى الكلمة هو أفلوطين . وعلى الرغم من أن مدرسته كانت فى روما الا انه يعد من مدرسة الاسكندرية ، فهو فيلسوف اسكندرانى ، واكثر من هذا فهو مصرى .

ولد فى ليقوبوليس — وهى اسيوط حاليا — بمصر الوسطى ، سنة ٢٠٥ وتوفى ٢٧٠ بعد الميلاد . ولا ندرى شيئا عن نشأته الأولى واسرته ، لانه كما يقول تلميذه فرفريوس الصورى ، كان يأبى ان يتحدث عن آبائه واقربائه وموطنه . وفرفريوس هو الوحيد الذى كتب سيرة افلوطين ، وهو الذى نشر تاسوعاته ، وسنتكلم عنه بعد حديثنا عن أفلوطين ، وما نعرضه الآن عن افلوطين مستمد مما دونه فرفريوس ، فلا حاجة للاشارة الى الموضع الذى اخذنا عنه . قال فرفريوس :

على الرغم من امتناعه بوجه عام عن الحديث عن حياته الخاصة الا انه روى لنا بعض التفصيلات خلال احاديثه

معنا . ففى الثامنة والعشرين من عمـــره أصابته حمى الفلسفة فاتجه الى أبرز معلميها بالاسكندرية ، الا أنه كان يعود بعد الاستماع الى محاضراتهم حزينا مهيض الجناح . فلما رأى أحد أصدقائه ما هو عليه من خيبـــة أمل وكان يعرف مزاجه صحبه الى أمونيوس الذى لم يكن قد حضر عليه بعد . وبعد أن سمع أفلوطين محاضراته قال لصاحبه متعجبا : « هذا هو الرجل الذى كنت أنشده » .

ومنذ ذلك اليوم استمر يتبع أمونيوس حتى بلغ من تقدمه فى الفلسفة أنه رغب فى الاطلاع على مناهج الفرس والمذهب السائد بين حكماء الهند . وصادف أن الامبراطور جورديان كان يعـــد حملة يجردها على الفـــرس فالتحق أفلوطين بالجيش وذهب مع الحملة ، وكان عنـــد ذلك فى التاسعة والثلاثين من العمر ، اذ كان قد أمضى أحد عشر عاما فى صحبة أمونيوس . وانهزم الجيش فى العراق وقتـــل الامبراطور وهرب أفلوطين الى انطاكية ثم ذهب الى روما واستقر بها وهو فى الأربعين من العمر .

كانت روما عاصمة الامبراطورية وقلب العالم المتحضر فى ذلك الزمان ، فاجتذبت اليها عدداً من العلماء والفلاسفة والأدباء . فى هذه العاصمة انشأ افلوطين مدرسته ، التى ظفرت بتأييد الامبراطور ، فكفاه بذلك مؤونة الانفاق على المدرسة . ولم تقتصر المدرسة على الامبراطور جاليانوس الذى حكم من ٢٦٠ الى ٢٦٨ ، وكان أديبا فيلسوفا ، بل

شاركته زوجته الحضور على أفلوطين . ويبدو أن المدرسة كانت تستقبل النســـاء كما تستقبل الرجال ، واحداهن سيدة تدعى « جمـــانا » كان أفلوطين يسكن فى دارها . ويبدو كذلك أن المدرسة كانت تفتح أبوابها لكل طالب ، فقد ذكر فرفريوس فى السيرة التى كتبها عن أفلوطين انه كان يمتنع من الجلوس أمام المصورين أو النحاتين ليرسموا صورته أو ينحتوا له تمثالا ، حتى ان تلميذه اميليوس حين طلب منه ان يسمح بالوقوف أمام مصور ، أجابه : « ألا يكفى أن نحمل هذه الصورة التى قيدتنا الطبيعة فيها ؟ أتحسب حقا اننى يجب أن أرضى بأن أترك لخلفى صورة للصورة » فلما ابى أفلوطين عهد أميليوس الى صديق له اسمه « كاتريوس » يجيد الرسم ، فأدخله الى المدرسة يستمع الى دروس أفلوطين ، وكانت الدروس مباحة لكل طالب .

كان هدف أفلوطين من المدرسة أن تكون نبراسا يهدى النفوس الى التقوى والصلاح والخير ، فكان يصرف تلاميذه عن الاشتغال بأمور الدنيا ، ويحملهم على حياة من الزهد توصل الى شفاء النفس بالتجرد عن جميع العلائق واماتة سائر الشهوات . وكان هو نفسه مهملا أمر جسده محتقرا اياه ، ممتنعا عن أكل اللحم . وقد استهوت هذه التعاليم كثيرا من التلاميذ حتى أن « روجاتيانوس » عضو الشيوخ نزل عن املاكه وأمواله وعبيده والقابه ، وسار فى طريق الزهد حتى أصبح لا يأكل الا مرة واحدة كل يومين . وكان

للناس – رجالا ونساء – فيه اعتقاد عظيم ، حتى انهم عندما كانت تحضرهم الوفاة يعهدون بأبنائهم وبناتهم وما يملكون لرعايته ووصايته ، فكان منزله يعج بالصبيان والبنات ، وكان الى ذلك يقوم بتعليمهم الأدب والشعر ، ويأخذ بيدهم الى طريق الفلسفة ، ويحتفظ بأموالهم لا يمسها حتى يبلغوا مبلغ الرجال وسن الرشد .

وكانت المدينة الفاضلة الحلم الذى راود معظم الفلاسفة اليونانيين ، وعلى رأسهم افلاطون صاحب الجمهورية او المدينة الفاضلة المثالية . وانتهز أفلوطين فرصة منزلته عند الامبراطور جاليانوس وزوجته سالونينا ، تلك المنزلة التى كادت تبلغ التقديس والعبادة ، فطلب منهما أن يعيش هو وأتباعه فى « كامبانيا » التى كانت فيما يروى مدينة للفلاسفة فى قديم الزمان ثم تهدمت وخربت . ورأى أفلوطين اعادة بناء المدينة ، وأن يعيش السكان فى ظل القوانين التى يضعها لهم ، ويسمى المدينة « فلاطونوبوليس » **Platonopolis** .
ومعنى بوليس **Polis** باليونانية مدينة ، ومنها هليوبوليس احدى ضواحي القاهرة ، ومعناها مدينة الشمس . وعزم أفلوطين الاقامة مع أتباعه فى تلك المدينة لولا أن حساده فى البلاط حالوا بين الامبراطور وبين تنفيذ وعده .

وكان بالمدرسة تلاميذ كثيرون ، الا أن أشهرهم كان أميليوس ، وكذلك طبيب من الاسكندرية اسمه أسطوخيوس

لزم افلوطين فى أواخر حياته الى أن توفى ، واتبع مذهب افلوطين واصبح فيلسوفا على الحقيقة . هـذا الى جانب فرفريوس كاتب هذه السيرة ، والذى عهد اليه افلوطين بمراجعة كتابه ونشره . وكان أفلوطين فى التاسعة والخمسين عندما اتصل به فرفريوس قادما من اثينا . وظل أفلوطين زهاء عشر سنوات لا يدون شيئا ولا يكتب فلسفته ، بل يتحاور مع جماعة من الأصحاب على أساس ما تعلمه من امونيوس . ويمضى فرفريوس فى روايته بعـد ذلك قائلا : اننى حين أول ما التقيت به كان قد الف خمسا وعشرين مقالة ــ وستسمى المقالة فيما بعد تاسوعا ــ حصلت عليها على الرغم من أنه لم يعطها الا لعدد قليل جدا . الحق انها وزعت بعناية شديدة ، ولم يضـع أفلوطين لهذه المقالات عناوين ، فاجتهد كل من حصل عليها أن يضع لها العنوان المناسب . وظللت على صلة وثيقة به مدة ست سنوات ؛ والف بعد ذلك اربعا وعشرين مقالة اخرى ، ثم أرسل لى حين كنت بصقلية وقبل وفاته بمدة قصيرة اربعا أخرى ، فأصبحت جملتها أربعا وخمسين . وعندما نشر فرفريوس هذه المقالات قسمها ستة أجزاء ، فى كل جزء تسع مقالات ، ومن هنا جاء اسمها وهو تاسوعات أفلوطين . وقد نقل بعضها فى عصر الترجمة ، وسـميت كتاب « الربوبية » ونسبت خطأ لأرسطو ، قام بالترجمة ابن ناعمة الحمصى وصححها يعقوب الكندى .

ويمضى فرفريوس قائلا : وكان لابد لى من مراجعة ما كتبه ، لأنه لم يكن يطيق اعادة قراءة ما كتب ، ولم تكن حالة بصره تسمح له بذلك . كان خطه رديئا ، يسىء الربط بين الألفاظ ولا يعنى بقواعد الاملاء ، لأن عنايته الوحيدة اتجهت نحو الفكرة ، وقد لزمته هذه العادات طول حياته . وقد تعود أن يتصفح خطة بحثه فى ذهنه من أولها الى آخرها حتى اذا جلس لتدوينها جرى القلم على الورق بما احتفظ به فى ذهنه بجرة واحدة وكأنه ينسخ من كتاب مفتوح . واذا عرض له أن يتحدث مع شخص ما أقبل عليه بكل حواسه مع الاحتفاظ بتسلسل فكره واضحا امام ذهنه . حتى اذا انصرف محدثه ، لا يرجع أبدا الى ما سبق أن كتبه ، بل يصل ما انقطع وكأن شيئا لم يصرفه عن التفكير . وهكذا كان يعيش فى داخل نفسه ومع الآخرين فى آن واحد .

أما فى محاضراته فكان بارعا فى العرض مع قدرة فائقة على الابتكار والفهم . وهو حين يتكلم كان نور عقله يضىء وجهه بشكل واضح . وكان على استعداد أن يتلقى الاعتراضات ويجيب عنها بنفس القوة التى وجهت اليه . وقد استمر فرفريوس يوجه اليه مدة ثلاثة أيام أسئلة عن ارتباط النفس بالبدن ، واستمر يجيب عنها بغير انقطاع . كان موجز الأسلوب ، مركز الفكر ، معناه أوسع من لفظه ، ملهما فى تعبيره . وقد جمع فى كتاباته بين مذاهب الرواقية

والمشائية مدمجا بوجه خاص فيها ميتافيزيقا ارسطو . حصل العلم النظرى بالهندسة والميكانيكا والبصريات والموسيقى ، غير أنه لم يكن على استعداد للمضى فى دراستها دراسة تامة عميقة .

وطريقته فى التعليم فى أثناء المحاضرات أن تقرأ رسائل المؤلفين بصوت عال ؛ من الأفلاطونيين سفيروس أو كرونيوس ، أو كايوس ، أو اتيكوس . ومن المشائين اسباسيوس ، والاسكندر ، واوراستوس وغيرهم . ولكنه لم يتبع أى واحد منهم اتباعا أعمى ، بل اتخذ لنفسه وجهة نظر شخصية مبتكرة مطبقا منهج أمونيوس فى فحص المسائل .

حدث ذات يوم ان حضر أوريجين فى حجرة درسه ، فاحمر وجه أفلوطين وأوشك أن ينهى المحاضرة . فلما رغب اليه أوريجين أن يستمر أجابه : أن نار الحماسة لتخبو حين يشعر المتكلم أن السامعين لن يتعلموا منه شيئا .

واليك حكم لونجينوس – أحد فلاسفة ذلك العصر كان يعيش ويعلم فى أثينا – على أفلوطين ، من خطاب له أرسله الى فرفريوس . قال : عندما كنت صبيا أفسحت رحلات والدى الطويلة لى فرصة رؤية أفضل معلمى الفلسفة ، وظللت على اتصال بجميع الأحياء منهم فى المدن التى كنت أرحل اليها . كان بعضهم يصوغ أفكاره فى مؤلفات يتركها لفائدة الخلف ، وكان بعضهم الآخر يقنع بان يفهم عنه

السامعون . وممن لم يكتب امونيوس واوريجين ، وقد حضرت عليهما بنفسي واعترف بامتيازهما على اقرانهما . وهناك كذلك فى اثينا ثيودورس ويوبولس . وممن كتب من الأفلاطونيين اقليدس وديمقريطس وبرقلينوس ، ثم اثنان لا يزالان يعلمان الفلسفة فى روما وهما افلوطين وصاحبه اميليوس . وهذان وحدهما يظهر عليهما الروح الصادقة لصناعة التأليف فى المسائل التى يعالجانها . ويبدو أن افلوطين يلقى على مبادىء فيثاغورس وافلاطون ضوءا اسطع من اى فيلسوف سبقه . ويحذو اميليوس عن قصد حذو افلوطين وقد اصطنع معظم آرائه .

يتضح من ذلك ان حياة المدرسة كانت شديدة الجدل مع سيادة روح البحث الحر ، وان الطلبة كانوا يتعلمون كتابة المقالات وانشاء الرسائل . هذا الى قراءة نصوص الفلاسفة وشرحها والتعليق عليها . وكان الطلبة يقرءون ابحاثهم ويناقشون فيها علانية . والى جانب ذلك تراسلت المدارس من شتى المدن فيما بينها ، يتبادل الأساتذة والطلبة الافكار ويتحاورون على البعد كما رأينا فى المراسلات بين لونجينوس وفرفريوس . وهكذا استطاع افلوطين باصالة تفكيره أن يجدد الافلاطونية وأن يمزج بينها وبين المشائية والرواقية والفيثاغورية ، وأن يخرج بمذهب جديد ، ومدرسة جديدة ، تعد آخر المدارس الفلسفية اليونانية .

الجديد فى هذه الفلسفة منهجها ، ونظرتها الى النفس ، وتفسيرها للوجود . منهجها التأمل فى باطن النفس ، والترقى الى آفاق أعلى بطريق الجدل صعودا حتى تبلغ النفس منبع النور والبهاء ، ثم تهبط بعد ذلك وقد استفادت من الحق . وقد كان الجدل منهج أفلاطون ، ولكن جدل أفلوطين مختلف عنه من حيث اعتماده اعتمادا مطلقا على التأمل الباطن ، واستخلاص الحقائق من النفس ذاتها ، على حين أن جدل أفلاطون كان يبدأ من المحسوسات ومن المباحث فى الرياضة والنظر الى الأشكال الرياضية ليصعد منها الى المثل ، الى الصور المجردة ، ثم يهبط بعد ذلك الى العالم المحسوس بعد أن يكون الفيلسوف قد عرف المثل ليصلح من حال المدينة . لم يكن أفلاطون هاربا من عالم الواقع ، هائما فى عالم المعقولات ، كلا كان هربه مؤقتا ليعود مرة أخرى الى الواقع يصلح من أمره ، ويحقق فيه الخير والعدل . أما أفلوطين ، فان الظروف السياسية والاجتماعية التى سادت العالم فى زمانه ، مع بداية انهيار الامبراطورية الرومانية وانتشار الفساد مع كثرة الحزوب التى خربت البلاد ، جعلته يهرب من ذلك العالم الذى فقد الناس الأمل فى صلاحه الى عالم آخر ، اما بالانطواء داخل النفس ، واما بالرجاء فى حياة أخرى أسعد من الحياة الدنيا . وقد قال أفلوطين بالطريقين ، أن يحصر الانسان نفسه فى داخل نفسه وينطوى عليها ويزهد فى مباهج الحياة الدنيا كما رأينا

من سيرته ، وأن يسعى الى السعادة فى الحياة الآخرة . ولا شك أن المسيحية التى كانت معاصرة لفلسفة أفلوطين قد تأثرت بتعاليمه ، كما تأثر مذهبه بآراء فلاسفة المسيحيين الذين ظهروا فى الاسكندرية .

ويختلف الأساس الفلسفى عند أفلوطين عن الأساس الذى قامت عليه الفلسفة اليونانية من قبل الى افلاطون وأرسطو . حاولت الفلسفة اليونانية تفسير الوجود ، أى بيان كيفية وجود الموجودات ، فذهب بارمنيدس أن الوجود موجود ، اى أنه حقيقة أولية لا تحتاج الى اثبات ، وعند أفلاطون أن الوجود نوعان معقول ومحسوس ، وأن الوجود المعقول ـ نعنى عالم المثل ـ أصل الوجود المحسوس . ولكن الموجودات المحسوسة التى نشهدها فى هذا العالم ليست الا ظلالا وأوهاما ، أما الحقيقة فهى أمثال هذه الموجودات . والمثال معقول . ولذلك كانت فلسفة أفلاطون مثالية . ولما جاء أرسطو لم يفصل هذا الفصل فى الوجود بين عالمين ، بل قال ان الموجود مركب من مبدأين المادة والصورة . صفوة القول الفلسفية اليونانية فلسفة وجود ، وتعريف أرسطو للفلسفة الأولى ـ أو الميتافيزيقا ـ أنها هى العلم بالموجود من حيث هو موجود .

أما فلسفة أفلوطين فهى فلسفة واحد .

الواحد فى قمة الوجود ، وأعلى منه ، وعن الواحد يصدر العقل ، وعن العقل تصدر النفس . وهكذا يبدا

افلوطين بثالوث متدرج فى القيمة ، على رأسه « الواحد » . ومن هنا كانت فلسفته مختلفة عن أفلاطون وأرسطو . أما مفهوم الواحد عنده فليس واضحا متميزا ، فهو تارة الله ، وهو تارة أخرى الخير ، وهو تارة ثالثة الأول . مهما يكن من شيء فان الواحد أعلى من الوجود .

اذن كيف جاء الوجود عن الواحد ؟ أول موجود صدر عن الواحد هو العقل ، فاض عنه لأنه صورة من الواحد ، أو شبيه له ، ثم يصدر عن العقل النفس التى هى صورة ادنى من العقل .

ولكن كيف يعرف الانسان أنه جزء من النفس الكلية ، وكيف وصل الى معرفة العقل ومعرفة العالم الالهى الذى هو فوق العقل ؟ فلنترك أفلوطين يحدثنا عن هذه المعرفة التى تتم بطريق الجدل ، وذلك من الترجمة العربية القديمة التى أصلحها الكندى . قال :

« انى ربما خلوت بنفسى ، وخلعت بدنى جانبا ، وصرت كأنى جوهر متجرد بلا بدن ، فأكون داخلا فى ذاتى ، راجعا اليها ، خارجا من سائر الأشياء ، فأكون العلم والعالم والمعلوم جميعا . فأرى فى ذاتى من الحسن والبهاء والضياء ما أبقى له متعجبا بهتا ، فأعلم أنى جزء من أجزاء العالم الفاضل الشريف الالهى ، ذو حياة فعالة . فلما ايقنت بذلك ترقيت بذاتى من ذلك العالم الى العالم الالهى فصرت كأنى موضوع فيه ، متعلق به ، فأكون فوق العالم العقلى كله ،

فأرى كأنى واقف فى ذلك الموقف الشريف الالهى ، فأرى هناك من النور والبهاء ما لا تقدر الألسن على صفته ولا تعيه الأسماع . فاذا استغرقنى ذلك النور والبهاء ، ولم أقو على احتماله ، هبطت من العقل الى الفكرة والرؤية ، فاذا صرت فى عالم الفكرة والرؤية حجبت الفكرة عنى ذلك النور والبهاء ، فأبقى متعجبا كيف انحدرت من ذلك الموضع الشامخ الالهى ، وصرت فى موضع الفكرة ... »

لقد عرفت الفلسفة الاسلامية أفلوطين عن هذا الكتاب ، ولكنه نسب خطأ الى أرسطو ، وكان ذلك علة التوفيق بين الحكيمين أفلاطون وارسطو ابتداء من الفارابى الى ابن سينا ، فقالوا بمراتب الوجود وتسلسلها عن الأول .

وبعد وفاة أفلوطين خلفه فى رياسة المدرسة بروما تلميذه وناشر التاسوعات وهو فرفريوس الصورى . (٢٣٢ — ٣٠٥) . ولد بصور وأمضى شبابه بها ، وحصّل كثيرا من المعارف الدينية والفلسفية فى فلسطين وسوريا ، ثم ذهب الى اثينا وتعلم على لونجينوس ، وانتقل الى روما حيث التحق بمدرسة أفلوطين ، وتولى رياستها بعد موته ، وتمتع بشهرة واسعة وسمعة طيبة وحضر عليه كثير من الطلبة منهم « يامبليخوس » الذى يعد من اشهر الأفلاطونيين المحدثين فى سوريا .

عُرف فرفريوس فى العالم العربى منذ عصر التراجمة واستمر يؤثر فى الفلسفة العربية بكتاب له يسمى

« ايساغوجى » سنعود الى الحديث عنه بعد قليل . فاذا كان العرب قد جهلوا أفلوطين بسبب ذلك الخلط الذى وقع فى ترجمة كتابه ، فقد عرفوا تلميذه معرفة وثيقة ، وقبلوا بعض آرائه ورفضوا بعضها الآخر . ومهما يكن من شيء فان آراء فرفريوس فى جملتها امتداد لآراء أستاذه ، ولو انه نحا بها نحوا آخر . ولهذه الشهرة عند العرب نطيل فى عرض مذهبه بعض الشيء .

له مؤلفات كثيرة منها « فلسفة الكهانة » يصور فيه العبادات الدينية فى هياكل الوثنيين بحسب ما كانت تمارس عند المصريين والكلدانيين والسريان . ومنها «صور الآلهة» يدافع فيه عن الوثنية ويبين أن عبادة الأصنام لا تنطوى على كفر كما يزعم المسيحيون واليهود ، لأنها رموز محسوسة تقرب الى الالاه وله كتاب « الرد على النصارى » يبدو انه كتبه بدافع سياسى لأن الامبراطور فى روما أصبح يخشى تزايد قوة المسـيحيين الى جانب المحنـة التى كانت الامبراطورية تمر بها من شيوع البؤس والفقر والخراب وتهديد الولايات بالانفصال وانقضاض البرابرة على أطراف الامبراطورية تمر بها من شـيوع البؤس والفقر والخراب الفلسفة اليونانية وهى القائمة على العقل على الدين المستند الى الايمان . وله كذلك رسالة « فى الرد على انابو » وهو كاهن مصرى ، يرد فيه على عقائد قدماء المصريين معليا شأن الفلسفة .

كان أفلوطين قد تكلم فى خلود النفس وقدم أدلة جديدة خلاف أدلة أفلاطون التى ذكرها فى محاورة فيدون ، فقال فى التاسوعات ان النفس « ليست بجرم وأنها لا تموت ولا تفسد ولا تفنى بل هى باقية دائمة » وأن النفس النقية الطاهرة التى لم تدنس بأوساخ البدن هى التى أذا فارقت تعود الى الجوهر النفسانى الأعلى أما التى تتصل بالبدن وتخضع لشهواته فاذا فارقت لم تصل الى عالمها الا بتعب شديد . ومعنى ذلك انالنفس –كماذكرنا من قبل– متوسطة بين عالم العقل وعالم الهيولى ، فاذا شغلت بالنظر العقلى اتصلت بعالم العقل ، واذا انغمست فى الشهوات هبطت الى عالم الهيولى . وهذا هو رأى فرفريوس كذلك الا انه بدلا من الحياة العقلية الصرفة ينادى بممارسة العبادات والطقوس وطهارة النفس بالزهد والامتناع عن الشهوات .

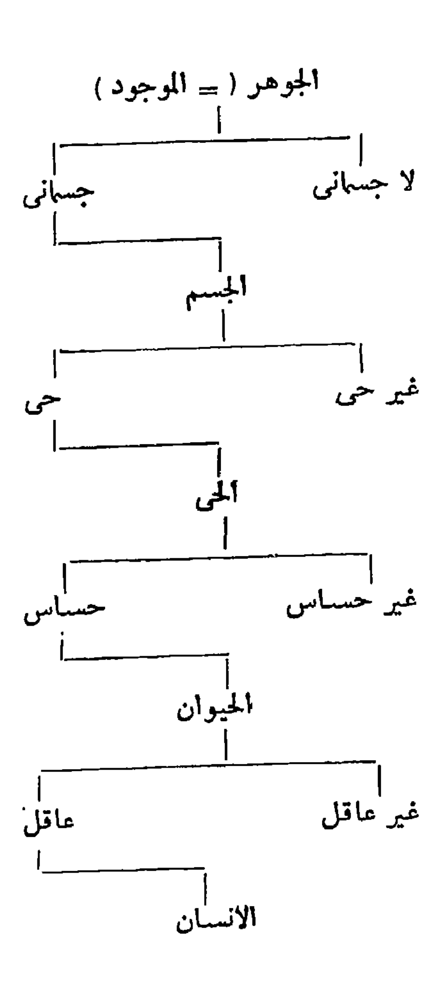
وكان افلوطين مثل معظم الفلاسفة الأقدمين يميز بين العالم المحسوس والمعقول ، ولكنه تميز عن السابقين بمنهجه الجدلى الذى يتأمل فى باطن النفس ليصعد من ذلك الى عالم العقل ، وفى ذلك يقول : « ان من قدر على خلع بدنه ، وتسكين حواسه ووساوسه وحركاته ، قدر أيضا فى فكرته على الرجوع الى ذاته ، والصعود بعقله الى العالم العقلى ... » (الربوبية ص ٤٤) . فأفلوطين كما نرى لا يخلط بين النفس والعقل ، ولا يقول الا بالتأمل والنظر . أما فرفريوس فانه يشترط فضائل عملية من زهد وامتناع

غن أكل اللحـــوم وغير ذلك كى تصـــعد النفس الى عالم المعقولات . ويبدو أنه كان يقول « ان ذات النفس تصير هى المعقولات » ، ولذلك اعترض عليه ابن ســينا فقال : « فهذا من جملة ما يستحيل عندى . فانى لســت افهم قولهم ان شيئا يصير شيئا آخر ، ولا أعقل أن ذلك كيف يكون ... وأكثر ما هوس الناس فى هذا هو الذى صنف لهم ايساغوجى ، وكان حريصا على أن يتكلم بأقوال مخيلة شعرية صوفية يقتصر منها لنفسه ولغيره على التخيل ؛ ويدرس اهل التمييز على ذلك كتبه فى العقــل والمعقولات وكتبه فى النفس » .

والذى صنف ايساغوجى هو فرفريوس ، وايساغوجى باللغة اليونانية تعنى المقدمة أو المدخل . وكتابه المدخل الى مقولات أرسطو ، ألفه لتلميذه خريساريوس الذى كان يطلب العلم فى مدرسة أفلوطين ، وهو احد اعضاء مجلس الشيوخ فى روما ، قرأ مقولات أرسطو فعجز عن فهمها ، فكتب الى فرفريوس وهو فى صقلية يقص عليه أمره ويطلب عونه ، فصنف له مدخلا الى المقولات يشرح فيه الكليات الخمسة وهى الجنس والنوع والفصل والخاصة والعرض العام ، فاشتهر الكتاب الصغير حتى وصـــفه العرب بأنه « سار مسير الشمس حتى يومنا هذا » .

ومعنى المقولة : ما يقـــال عن الشىء ؛ وهذا فى غاية الأهمية فى تعريف الشىء وتحديد ماهيته . ماذا نقول عن

سقراط ؟ (١) انسان ، (٢) طويل (٣) أبيض (٤) فى الدار .. الى آخر المقولات العشر ، انسان مقولة الجوهر ، طويل مقولة الكم ، أبيض مقولة الكيف ، وهكذا . والمقولات العشر ضرب من تصنيف الموجودات . أما الكليات الخمس : الجنس والنوع والفصل والخاصة والعرض العام ، فانها ضرورية للتعريف والقسمة والبرهان . فأنت تقول الانسان : حيوان ناطق ، وهو التعريف المشهور ، فانسان نوع ، وحيوان جنس ، وناطق فصل . وهذا التعريف يسمى الحد التام . والقسمة تقتضى تمييز الكلى الى أجزائه ، ومنها القسمة الثنائية ، وهناك تقسيم للموجودات مشهور ، يعرف « بشجرة فرفريوس » نسبة اليه ، وهى على النحو الآتى :


الجوهر (= الموجود)
لا جسمانى
جسمانى
الجسم
غير حى
حى
الحى
غير حساس
حساس
الحيوان
غير عاقل
عاقل
الانسان

وهكذا دخـــل فرفريوس تاريخ الفلســـفة بمدخله وشجرته .

وبمـــوته قفلت المدرســـة ابوابها ، ان فى روما او الاسكندرية ، وانتقلت بروحها الى الشرق مرة اخــرى ، فظهر يامبليخوس (٢٧٠ — ٣٣٠) شارح افلاطون وارسطو مع ميل الى الأفلاطونية الحديثة ، ثم برقليس او بروقلوس (٤١٠ — ٤٨٥) الذى تعلم بالاسكندرية ثم عاد الى اثينا فراس الأكاديمية ، ومزج بين الفلسفة والعلم الرياضى وحذا حذو الأفلاطونيـــة المحدثة ، واشتهر عند الاســـلاميين والمسيحيين على السواء فى العصر الوسيط .

مدرسة جنديسابور

انها همزة الوصل بين الفلسفة اليونانية والعربية ، على الرغم من أنها تقع فى فارس . أما كيف انتقلت الفلسفة اليونانية اليها ، وبخاصة الفلسفة الاسكندرانية التى تميزت بنزعتها العلمية ، فلذلك قصة يجدر بنا أن نرويها .

لم ينقطع النزاع بين الفرس واليونان بعد خضوع اليونان لروما مع اتساع الدولة الرومانية اذ انتقل هذاالنزاع فأصبحبين الفرس والرومان . وكان للرومان الغلبة دائما حين كانت الامبراطورية قوية ، فلما بدات تضعف وتتفكك انعكست الآية وانهزمت جيوشها أمام جحافل الفرس . وقد أشرنا عند الحديث عن أفلوطين انه انخرط فى جيش الامبراطور جورديان الثالث مع حملته على الفرس ، بغية الاطلاع على مذاهب الشرق وما فيه من حكمة ، ولكن فشل الحملة ، جعلته يعود أدراجه ويتجه الى روما حيث افتتح مدرسته . نشبت الحرب لأن فارس قامت بها دولة الساسانيين على يد مؤسسها أردشير ، حتى اذا استتب له الأمر ارسل سنة ٢٣٠ الى روما يتحدى الامبراطور ويطلب اعادة الأقاليم التى كانت تابعة للفرس مثل آسيا الصغرى

وسوريا ، ومات أردشير سنة ٢٤١ ولما تبدأ الحرب ، التى نهض بها ابنه شـــابور (٢٤١ ــ ٢٧٢) ، والتقى بجيش جورديان ، الذى هزمه أول الأمر ، ولكن مصرع جورديان سنة ٢٤٤ أوقف الحرب ، واتفق على أن تحـــكم فارس أرمينيا ، وروما العـــراق . ثم نشبت الحرب مرة أخرى سنة ٢٥٨ ، وكان على رأس الجيش الرومانى الامبراطور ڤاليريان ودارت الدائرة على الامبراطور وانهزم هزيمة ساحقة وأسر هو وجيشه .

أحسن شابور معاملة الأسرى ، واستطاع بما منحهم من حرية أن يستفيد منهم ، وكان فيهم كثير من الفنيين ، أطباء ومهندسين وصناع مهرة . وهؤلاء هم الذين قاموا ببناء السد الكبير على نهر دجيل عند تستر ، والمعروف باسم « شاذروان تستر » . وانزل شابور ــ أو سابور ــ الأسرى فى بقعة قريبة من مدينة سوس ، ومن مدينـــة تستر ، فأقاموا بها معسكرا أصبح مدينة « جنديســـابور » أى معسكر سابور . وازدهرت المدينة وأصبحت قاعدة اقليم خوزستان أيام الساسانيين ، الذين اتخذوا من مدينـــة السوس مقرهم الشتوى ، ومن جنديسابور مقرهم الصيفى لطيب مائها واعتدال هوائها ، وظل ملوك الساسانيين كما يقول المسعودى فى مروج الذهب حتى زمان هرمز يقيمون بجنديسابور فى خوزستان .

وقد نعم الأسرى فى ظل الحكم الفارسى بحرية دينيـــة

لم ينعموا بهـــا فى كنف الرومان ، الذين كانوا يضطهدون المسيحيين مما دفعهم الى التخفى وممارسة عباداتهم سرا . ولم يكن يعنى الفرس أن يحاربوا النصارى فتركوا لهم حرية بناء الكنائس . ثم ان جنديسابور لم تعد تحت حكم هرمز قاعدة العرش ، ففقدت بذلك أهميتها ، وأصبحت خرائب ، الى أن أعاد بناءها سابور الثانى سنة ٣٦٢ عقب انتصاره على الامبراطور جوليان ، ووقوع عدد من الأسرى فى يديه ، فانزلهم المدينة بعد تجديدها ، وكانت المسيحية قد انتصرت نهائيا على الوثنية ، فأصبح عبء نقل الحضــارة اليونانية واقعاً على عاتق الكنيسة ، وقام بها فى الشرق نصــارى السريان وكانوا من النسـاطرة .

ولسنا ندرى على التحقيق ما كان من أمر المدرسة فى القرنين الرابع والخامس ، ولكن المؤكد أن كسرى انوشروان (٥٣١ ــ ٥٧٨) هو الذى أحاط المدرسة برعايته ، وطمع أن تكون على مثال المدارس الفلسفية وبخاصـــة مدرسة الاسكندرية التى كانت تعنى بالرياضيات والطب والفلسفة. وهو الاتجاه الاسكندرانى الذى تحدثنا عنه من قبل . وهو الذى رحب بفلاسفة أثينا الذين طردهم جستنيان عندما اغلق أبواب الأكاديمية والمشائية . وعنـــدئذ طبق المنهج الاسكندرانى فى التعليم ، واستعملت الكتب نفســـها التى كانت تدرس فى الاسكندرية ، ان فى الطب أو الرياضيات . ولم تكن جنـــديسابور هى المدينة الوحيدة فى فارس التى

كانت مقراً للعلوم والفلسفة ، بل ظهرت مدارس فى مدن اخرى ، ذكر ياقوت فى معجم البلدان ما يدل على وجودها اذ يقول عند الكلام عن « ريشـَهر » ، « وهى مختصر من ريو أردشير ، ناحية من كورة أرجان كان ينزلها فى الفرس كشته دفتران ، وهم كـُتـّاب كتابة الجستق (١) ، وهى الكتابة التى كان يكتب بها كتب الطب والنجوم والفلسفة ، وليس بها اليوم أحد يكتب بالفارسية ولا بالعربية » . والمقصود بالنجوم علم الفلك .

اخذ طب اليونان عن مدرستين ، مدرسة ابقراط الذى توفى فى القرن الثالث قبل الميلاد ، ومدرسة جالينوس (توفى ٢٠٠ بعد الميلاد) . وأصل جالينوس من برجام بآسيا الصغرى ، ولكنه عاش معظم حياته فى روما ، ولا بد أنه اتصل بالاسكندرية واطبائها. واعتمدت مدرسة الاسكندرية على كتبه ، واختاروا منها ستة عشر كتابا لا بد لطالب الطب من حِفظها ، وعليها اعتمدت مدرسة جنديسابور الطبية ، ونقلتها الى السريانية ، وعن هذه الكتب المترجمة الى السريانية نقلت الى اللغة العربية فى عصر الترجمة . ومن أطباء الاسكندرية الذين تابعوا جالينوس : أوريباسيوس ، وايتيوس ، واهرن ، الذى يسميه العرب أهرن القس ،

(١) كذا بالاصل ، ولعل صوابها جـُشـْتـَن ، بالنون لا بالقاف ، ومعناها بالفارسية البحث .

وهو طبيب وكاهن يهودى عاش فى الأغلب فى القرن الخامس ، وترجم « كناشه » أى كتابه الواقع فى ثلاثين مقـالة الى السريانية ثم الى العربية . ويلوح أن الذى أذاع كتب اهرن طبيب فارسى النشأة ، يهودى المذهب ، سريانى اللسان ، يسمى ماسرجويه أو ماسرجيس ، تولى نقل كتاب أهرن فى خلافة مروان بن الحكم (٦٤ ــ ٦٥ هـ) الى العربية .

ولكن مدرسة جنديسابور الطبية لم تقف عنـد طب بقراط وجالينوس ، بل أخذت أيضا بالطب الهندى الذى يعتمد على الأعشاب المعروف اثرها بالتجربة وعلى التعاويذ والتمائم لطرد الأرواح الشريرة التى كانوا يعتقدون انهـا تسبب المرض . ويروى أن كسرى استدعى من الهند طبيبا ليعلم الطب على الطريقة الهندية فى مدرسة جنديسابور وكذلك عنى كسرى بالأعشاب الهندية واستجلب بعضها الى فارس وزرعها فى ضواحى جنديسابور ، ومنها «السكر» الذى يصنع من قصب السكر . ولفظة « سكر » هـذه سنسكريتية ، درجت فى اللغة الفارسية ومنها الى العربية . وقد استخرج السكر من عصير القصب حوالى القرن الرابع الميلادى فى الهند ، فلما زرع فى جنديسابور أنشئت معاصر خاصة له . وفى ذلك الوقت كان السكر يستخدم فى العلاج ، ولم يتخذ بدلا من عسل النحل وسيلة للتحلية الا فى زمان متاخر .

قلنا ان الفرس اهتموا بالطب والنجوم والفلسـفة .

وعلم النجوم وهو الذى نسميه علم الفلك ، عنوا به عناية كبيرة ، ووضعوا بجنديسابور مرصداً على نسق ما كان موجوداً فى الاسكندرية . وعندما نقل العرب هذا العلم أخذوه عن الفرس ، ولذلك نجد كثيرا من المصطلحات الفارسية المعربة ، مثل زيج ، وهو لفظة من اللغة البهلوية المستخدمة زمان الساسانيين معناه السّدى الذى ينسج فيه لحمة النسيج ، ثم أطلق على الجداول العددية لمشابهة خطوطها الرأسية بخيوط السدى . وأقدم كتاب ترجم فى علم الفلك هو « زيج الشاه » .

واما الفلسفة فان كتب أرسطو ومنطقه بوجه خاص كانت على راس الكتب الفلسفية التى نقلها السريان لحاجتهم اليها فى مباحثهم الدينية .

ويبدو أن اللغة الأساسية التى كانت مستخدمة فى المدرسة هى السريانية ، باعتبار أنها لغة الأساتذة من جهة ، ولغة المراجع فى شتى العلوم بعد نقلها من اليونانية الى السريانية ، فكان لا بد للطالب من تعلم السريانية ليتمكن من التحصيل . ولا نزاع أن الأسرى الذين نزلوا جنديسابور كانوا يتكلمون اليونانية الى جانب السريانية ، ثم تعلموا الفارسية . ويلوح أن بعض الكتب قد ترجم الى الفارسية ايضا عن طريق السريانية ، كما حدث فيما بعد حين نقلت العلوم والفلسفة من السريانية الى العربية . وهذه الكتب السريانية فى طب جالينوس ، ومنطق أرسطو وبعض الكتب

الفلكية والرياضية هى التى عنها نقل المترجمون فى العصر العباسى ، وذلك بعد انشاء بغداد التى لم تكن مسرفة البعد عن جنديسابور ، فاجتذبت العاصمة الجديدة بتشجيع الخلفاء والأمراء وما كانوا يغدقونه على العلماء كثيرا من أطباء النساطرة وعلمائهم فجعلوا يهجرون موطنهم الأصلى فى المدرسة الفارسية ليستقروا فى عاصمة الخلافة .

وأول خليفة استقدم طبيبا من جنديسابور ، هو المنصور العباسى ، حين أصيب بعلة شديدة ترجع الى اضطراب الهضم ، وكان ممعودا ، فدعا جرجيس بن بختيشوع رئيس مدرسة جنديسابور وبيمارستانها . وظل جرجيس فى بلاط الخليفة ببغداد ، من سنة ١٤٨ هـ الى ١٥٢ هجرية ، حيث استأذن فى العودة الى جنديسابور . وفى خلافة الهادى استقدم بختيشوع بن جرجيس بن بختيشوع ، ليكون طبيب البلاط ، ولكن نشأ بينه وبين أبى قريش طبيب زوجة الهادى نزاعا ، فرؤى أن يستغنى عنه . فلما تولى هارون الرشيد طلبه لمداواته من صداع مزمن ، ثم استمر فى خدمة الخلافة من أسرة بختيشوع الابن الثالث وهو جرجيس بن بختيشوع الذى كان طبيبا لجعفر ابن يحيى البرمكى ثم أصبح طبيب الرشيد ورئيس الأطباء ، وخدم الأمين والمأمون ، وله مؤلفات طبية باللغة العربية ، توفى سنة ٢١٣ هـ .

وانشأ المأمون سنة ٢١٥ هجرية بيت الحكمة فى بغداد ،

وجعله مقـــراً للترجمة من السريانية ، ومن اليونانية الى العربية ، وجعل على راسه يوحنا بن ماسويه ، وهو طبيب سرياني من مدرسة جنديسابور ، هاجر الى بغداد وانشأ بها بيمارستانا الى أن قلده المأمون رياسة بيت الحكمة . وكان حنين بن اسحاق ، أشهر المترجمين ، من تلاميذه .

ورب معترض يقـــول أن بيت الحكمة لم يكن مدرسة فلسفية بل داراً للترجمة ، وليست ترجمة الكتب فلسفة . بل ان مدرسة جنديسابور نفسها لم تكن مدرسة فلسفية لأنه لم يؤثر عنها أنه قد ظهر منها فلاسفة يعرفون بهـــذا الوصف ، وانمـــا الذى برز منهم أطباء يقـــومون بالعلاج ويديرون البيمارستانات .

وهو اعتراض له وجاهته ، ولكن الحق أن مدرســـة الاسكندرية نفسها فى عصرها المتأخــــر فى القرنين الرابع والخامس ، لم تكن مدرسة فلسفية بمقدار ما كانت مدرسة علمية رياضية وطبية ، فيما عدا الأفلاطونية الجديدة التى انشأها أمونيوس سكاس وأعلنها أفلوطين . وفيما عدا ذلك فهل يمكن أن نسمى بطليموس صـــاحب المجسطى ، أو منيلاوس ، أو نيقوماخوس أو بابوس وغيرهم فلاسفة . وكذلك الأطباء من أمثال أوريباسيوس وأهرن . وفضـــلا عن ذلك فان هؤلاء الرياضيين والأطباء لم يكونوا من الأعلام كأوقليدس أو جالينوس بل كانوا أصحاب مختصرات وشروح بغية مصـــلحة التعليم . هذا وقد كانوا الى جانب ذلك

يعرفون مذاهب أفلاطون وارسطو والرواقيين وغيرهم من الفلاسفة ، فهم وان لم يكونوا فلاسفة الا انهم كانوا مؤثرين للحكمة ومعلمين لهـــا الى جانب معرفتهم بالرياضـــيات والطبيعيات والطب . وكان ذلك حال مدرسة جنديسابور ، فهى استمرار للتعليم الاسكندرانى وبخاصة فى الطب . ولما انتقل اطباؤها الى بغداد كان لا بد ان ينهضوا اول الأمر بحركة الترجمة تلك الحركة التى استغرقت زهاء قرن من الزمان .

ولكن ظهر من بين هؤلاء المترجمين وفى ابان حـــركة النقل فيلسوف اسلامى هو اول من سمى من العـــرب فيلسوفا ، وكان صاحب مدرسة ، وهو الكندى .

المدارس الفلسفية الإسلامية

١ ــ مدرسة الكندى

لم يظهر فى الاسلام مدارس فلسفية منظمة تفتح ابوابها للطلبة كما كان الحال فى اكاديمية أفلاطون أو لوقيون أرسطو ، أو حديقة ابيقور ، وانما ظهرت على معنى الصحبة والاتباع وتقليد المذهب . وهذا على عكس مدارس الفقه واللغة والتفسير والحديث التى انشئت منذ القرن الخامس الهجرى ، وانتشرت فى جميع انحاء العالم الاسلامى ، ورتب لها الأساتذة والكتب والجرايات واقيمت لها ابنية خاصة . وعلة ذلك أن الفلسفة كان ينظر لها بعين الارتياب ، واتهم المشتغلون بها بالكفر والالحاد ، فلم يكن يتسنى للدولة أن ترعاها .

ثم أن الفلاسفة الاسلاميين لم يكونوا فلاسفة فقط ، بل اشتغل معظمهم بالطب او الرياضيات ، ثم اتصلوا من ذلك بالفلسفة ، ولم تنقطع صلتهم بالطب أو بالرياضيات ، فكانوا حكماء واطباء فى آن واحد . وكانت هناك مدارس طبية ملحقة بالبيمارستانات يتخرج فيها الأطباء . ولكن حديثنا

اساساً عن المدارس الفلسفية ، فأين كانت تلك المدارس ؟ الأرجح أن الفلاسفة كانوا يعقدون تلك المدارس ، والأصح أن يقال « المجالس » فى دورهم ، ولم يكن عدد اتباعهم كبيرا ، بل بضعة نفر .

ومن هذا القبيل مدرسة الكندى . وهو ابو يوسف يعقوب بن اسحاق بن الصباح بن عمران بن اسماعيل بن محمد بن الأشعث الكندى ، فيلسوف العرب ، واحد أبناء ملوكها ، لأن كندة كانوا ملوكا على اليمن . تولى اسحاق بن الصباح امارة الكوفة فى خلافة المهدى والهادى والرشيد ، وولد ابنه يعقوب بالكوفة سنة ١٨٥ هجرية ، وبها تعلم القراءة والكتابة والنحو والعربية والفقه وعلم أصول الدين ، ولكنه انصرف عن علم الكلام الى علم الطب والفلك والرياضة والفلسفة ، وشارك النقلة فى الترجمة ، وكان يصلح الكتب المترجمة بأسلوبه العربى الفصيح ، وفسر كثيرا من كتب ارسطو ، والف كتبـــا مبتكرة جعلت مؤرخى الفلســـفة الاسلامية يصفونه بأنه فيلسوف العرب وقد نبغ فى خلافة المأمون والمعتصم ، وكان مؤدب احمـــد بن المعتصم بالله ، وعاش زمان المتوكل ، وتوفى سنة ٢٥٥ هجرية .

ان الكندى فيلسوف على الحقيقة ، جدير بهذا الاسم ، ويُعَدّه استمراراً للتعليم الاسكندرانى الذى ورثه العرب بعد نقله الى اللغة العربية ، بعد ان دفع هذا التراث دفعة

قوية ، وطعّمه بالديانة الاسـلامية موفقـاً بين الدين والفلسفة .

وقد عاصر الكندى المترجمين ، حتى قيل انه احد اربعة من حذاقهم ، ، والثلاثة الآخرون هم حنين بن أسحاق ، وثابت بن قرة ، وعمر بن الفرخان الطبرى . والحق انه لم يكن مترجما بمقدار ما كان مصلحاً للتراجم الغثة ، وكان الى ذلك مقتبسا للفكر اليونانى يلخصه ويأخذ زبدته ، وكان يصطنع مترجمين من السريان ينقلون اليه ما يريد من كتب ، ومن المعروف ان الذى كان يترجم لحسابه يسمى « أسطاث » . وكان الكندى يعرف اللغة السريانية معرفة جيدة ، وألف بهذه اللغة رسالة صغيرة . اما معرفته للغة اليونانية فمشكوك فيها .

وله مؤلفات غزيرة بلغت زهاء مائتين وستين كتابا ورسالة فى شتى فنون المعرفة من منطق ورياضيات وفلك وموسيقى وعلوم طبيعية وميتافيزيقا واخلاق وسياسة وكيمياء وغير ذلك ، مما يجعلنا نقول انه كان فيلسوف الحضارة العربية فى القرن الثالث الهجرى . ومعظم كتبه كان يوجهها اما للمعتصم ، أو لأحمد بن المعتصم ، أو لبعض الاخوان والتلاميذ ، الذين كانوا يستفسرون عن مسائل ، تعد الرسالة رداً على تلك الأسئلة . ومعظم الرسائل الباقية بين أيدينا تجرى على هذا النحو من السؤال والجواب ، مما يؤكد أن الكندى لم يكن مترجما ناقلا ، بل كان مفكراً

أصيلا ، حصل المعارف السابقة وتمثلها ثم أبدى رايه بعد ترجيح وجهة نظر على أخرى ، واضافة آراء جديدة .
ونضرب مثالا لذلك برسالة يجيب فيها عن ثلاث مسائل مختلفة ، الأولى : لم صار البخار يجمد فى الجو ؛ والثانية عن الصحو والغيم ، والثالثة اذا كانت الأعداد بلا نهاية فهل يمكن أن تكون المعدودات بلا نهاية . وليس من الضرورى أن يكون السائل قد تراسل فعـــلا مع الكندى ، اذ لعله قد باحثه ، وكانت نتيجة المباحثة تقييد هذه الرسالة . وكذلك كان يفعل مع تلميذه أحمد بن المعتصم بالله ، ولذلك جاءت رسائله ذات هيئة تعليمية مرتبة .

ويبدو أن الكندى كان يستقبل تلاميذه فى داره ، حيث كان يقتنى مكتبة واسعة من أكبر المكتبات ، حتى سميت بالمكتبة « الكندية » . ولهذه المكتبة قصة جديرة بالرواية ، اذ كان محمد وأحمد ابنا موسى بن شـــاكر فى أيام الخليفة المتوكل يكيدان كل من ذكر بالتقدم فى معرفة ، فدبرا على الكندى حتى ضربه المتوكل ، ووجها الى داره فأخذا كتبه بأسرها ، وافرداها فى خزانة سميت « الكندية » ، واسترجع الكندى مكتبته فيما بعد حين رضى عنه المتوكل .

ومن تلاميذه أبو العباس احمد بن محمد الخراسانى ، كان ممن ينتمى الى الكندى ، وعليه قرأ ، ومنه أخـذ .
ومنهم ابن كرنيب ابو احمد الحســين بن أبى اسحاق بن ابراهيم الكاتب ، وكان يعد من جملة المتكلمين . ومنهم على

ابن الجهم ، وكان من الشعراء المختصين بالمتوكل . وعدوا منهم كذلك جماعة باسم نفطويه ، وحسنويه ، وآخرون على هذا الوزن .

وطريق المعرفة عند الكندى اما حسى واما عقلى أو هما معاً . ولا بد مع ذلك من امور أربعة يتبعها طالب الفلسفة ، وهى الطلب والبحث والأداة والزمان . فالطلب سعى الى غاية ، والبحث تفتيش عن الخفايا ، والمعرفة ثمرة البحث ، والبحث نتيجة الطلب . وادوات البحث الرياضة والمنطق . والزمان داخل فى كل فعل انسانى ، على عكس العلم الالهى الذى « يتم بلا طلب ، ولا تكلف ، ولا بحث ، ولا بحيلة من الرياضيات والمنطق ، ولا بزمان » . ويهمنا من هذه الأمور الأربعة الرياضة والمنطق .

فقد ورث العرب فلسفة أفلاطون كما ورثوا فلسفة أرسطو ، وكان أفلاطون يعتمد فى الفلسفة على المنهج الرياضى ، وكان أرسطو يعتمد على المنطق . ولما كان الكندى فيلسوفا رياضيا فى المحل الأول ، فلا عجب ان يجعل الرياضة مدخلا لا بد منه لتعلم الفلسفة . وفى ذلك يقول بعد ذكر كتب أرسطو التى يحتاج الفيلسوف التام الى اقتناء علمها ، انه يجب اقتناء علم الرياضيات قبل ذلك ، « فانه ان عَدِم أحد علم الرياضيات التى هى علم العدد والهندسة والتنجيم والتاليف (اى الموسيقى) » وان طالب

الفلسفة اذا لم يحصل العلوم الرياضية تحصيلا وافيا ، فلن يتسنى له معرفة الفلسفة معرفة صحيحة .

لذلك كان العلم الرياضى مع انه أوسط فى الطبع ، الا انه اول فى التعليم .

ولكن فلاسفة العرب بعد الكندى ، لأنهم اتجهوا وجهة مشائية ، فقد اتخذوا من المنطق اداة لتعلم الفلسفة ، كما هى الحال عند الفارابى وابن سينا فيما بعد .

ويعد الكندى أول مصنف للعلوم عند العرب . وهو صاحب قسمة العلوم قسمين دينية وفلسفية ، وتبعه فى هذا التقسيم سائر الذين صنفوا العلوم ابتداء من الفارابى الى ابن خلدون . والذى دفعه الى اضافة العلوم الدينية ان الاسلام جاء بعلوم لا غنى عنها ، مثل علم النبوة وعلم اصول الدين وما يتصل بهما من فقه وحديث وتفسير وغير ذلك .

وقد شق الكندى طريق العلوم الرياضية من حساب وهندسة وفلك وموسيقى ، وكان يعد فى العصر الوسيط احد ثمانية من كبار علماء الفلك فى العالم فى ذلك الزمان . اشتهر فى أوربا بكتبه التى ترجمت الى اللغة اللاتينية ، والتى لا يزال بعضها موجودا .

وهو صاحب اول مدرسة موسيقية فى الاسلام ، من الناحية النظرية . وقد وضع رسائله فى الموسيقى لفائدة المتعلمين ، وبيان طريقة تعلمهم . يقول فى احدى رسائله

عند الكلام على طريقة جس الأوتار : « وهو سبيل ومدخل الى التعليم ، والالف للأصابع فى التنقل على الدساتين ؛ فان من استعمل ذلك واحكمه واسرع فيه ، قبل أن يقصد الى التعلم ، كان اسرع للقبول ، وسهلت عليه محاكاة الأستاذ . . »

وعلى الرغم من البحث النظرى فى الموسيقى واصولها وحسابها الرياضى ، فان الكندى يرى أن فنون تعليم الموسيقى « موجودة عند اهل هذه الصناعة ، وأخذها عنهم ، وتعلمها منهم نظراً ، أسرع واقرب الى الفهم منها من الكتاب » .

وقد عنى الكندى بالفنون العملية التى تشكل حضارة الأمة من الناحية المادية ، ولذلك اشتغل بالكيمياء ، وما يتصل بالكيمياء من اصباغ واحماض . وليس ببعيد انه كان يجرى فى داره تجارب كيمائية . وله رسالة فى السيوف تدل على معرفة وثيقة بصناعة الحديد والصلب ، استمدها من الاختلاط بأرباب هذه الصناعة . وهذا كله يثبت أن الفلسفة فى ذلك العصر لم تكن منعزلة عن المجتمع وحاجاته والرغبة فى العمل على رقيه وتقدمه .

ويتلخص مذهبه الفلسفى فى امرين يستهدفان غرضا يريد الوصول اليه . اما الغرض فاثبات « الواحد الحق » وهو الله سبحانه . ولما كان الاسلام يرمى الى اثبات الوحدانية ، وأن الله الواحد مبدع العالم من عدم ، وكانت الفلسفة فى صميمها تبغى معرفة الأله الواحد الحق ، فلا

منافاة بين الدين والفلسفة ، أو بين الحكمة والشريعة . وليس الاشتغال بالفلسفة كما يتهمها رجال الدين كفرا ، اذ لا يوجد فى الدين ما ينص على تحريمها وكفرها .

والأمر الثانى محاولته التوفيق بين افلاطون وارسطو . وقد رأينا أن ذلك التوفيق بدأ بالاسكندرية ، وعند أفلوطين وفرفريوس بوجه خاص . ولكن جوهر فلسفة أفلاطون التى تؤمن بالمثل أصلا للموجودات ، يخالف جوهر فلسفة أرسطو التى تعد فلسفة وجود قبل كل شيء ، وتخالف جوهر فلسفة أفلوطين التى تعتمد على الواحد وتصدر عنه الموجودات بسلسلة من الفيض . ولم يستطع الكندى أن يحل هذه المشكلة ، وأن يدمج فلسفة الوجود وفلسفة الواحد فى مذهب جديد يوفق بينهما . وهذا ما فعله الفارابى فيما بعد .

صفوة القول : لم يكن الكندى رئيسا لمدرسة فى بغداد بالمعنى المقصود من مدرسة عبارة عن بناء يشتمل على حجرات يجرى فيها التعليم بطريقة منظمة ، اذ كانت تلك المدارس لأسباب تاريخية وقفا على النصارى وملحقة فى الأغلب بالأديرة ، بعد انتقال الفلسفة والعلوم من الاسكندرية الى انطاكية ومن انطاكية الى حران ، والى جنديسابور ومنها الى بغداد ، ولذلك قال الدكتور مايرهوف فى بحثه عن انتقال التعليم من الاسكندرية الى بغداد ، أن « الكندى

الذى عاش آنئذ فى بغداد ، وكان أول فيلسوف مسلم ، لم يكن يدير أية مدرسة ، وانما كان يعطي دروسا خاصة » .

استطاع الكندى أن يبرز كفيلسوف ، وأن يرتفع عن مجرد اتباع الكتب المترجمة ، وان يخلق فى بغداد جيلا من التلاميذ ، ولم يكونوا كثيرين ، أشهرهم ثلاثة هم ابن كرنيب الذى كان صاحب مدرسة فى بغداد ، واحمد بن الطيب السرخسى ، وأبو زيد البلخى .

اما الذى اشتهر بين العرب حتى سمى المعلم الثانى ، فهو الفارابى .

٢ — مدرسة الفارابى

أبو نصر ، محمد بن محمد بن طرخان بن أوزلغ الفارابى ، ولد ٢٥٩ هجرية وتوفى ٣٣٩ . والفارابى نسبة الى مدينة فاراب بين حدود فارس وتركيا ، انتقل الى بغداد وتعلم بها الفلسفة على شخص يسمى يوحنا بن حيلان ، فأتقن المنطق ، وانتهى به المطاف الى بلاط سيف الدولة الحمدانى ، فخدمه ، ولازمه ، وتوفى بدمشق سنة ٣٣٩ هجرية . سمى المعلم الثانى فى أكبر الظن لأنه ادخل صناعة المنطق عند العرب ، باعتبار أن ارسطو — صاحب المنطق — هو المعلم الأول . وقد طعن على الكندى وقيل انه يجهل المنطق ، ولا يعرف بوجه خاص صناعة التحليل ، او البرهان . وأن الذى ذلل المنطق ، ويسره ، وفسره ، هو الفارابى . والحق أن الكندى كان رائدا شق الطريق ، وكان يكابد فى وضع المصطلح العربى المقابل للمصطلح اليونانى ، وقد هجر كثير من المصطلحات التى وضعها ، ولم تستقر فى الواقع الا زمان الفارابى الذى يعد صاحب الفضل فى استقرارها . وايضا فان الكندى كما ذكرنا لم يكن يؤمن بالمنطق اداة اولى لتحصيل الفلسفة ، وآثر عليها

الرياضيات ، لذلك لم يكن يعنيه كثيرا أن يتعمق فى صناعة المنطق ، على الرغم من أن ثبت مؤلفاته يدل على أنه فسر معظم كتب أرسطو المنطقية .

وللفارابى كتب كثيرة معروفة ، منها آراء أهل المدينة الفاضلة ، واحصاء العلوم ، وتحصيل السعادة والتنبيه على سبيل السعادة ، والجمع بين رأيى الحكيمين ، وغير ذلك من الرسائل المطبوعة . وله من الكتب المخطوطة الشيء الكثير ، الا أن معظمها مفقود ، وكتابه الموسيقى الكبير تحت الطبع فى الوقت الحاضر .

ثم انه لم يتعلم على يوحنا بن حيلان فقط ، بل على أبى بشر متى بن يونس أيضا . وذكر ابن خلكان كيفية اتصاله بأبى بشر وتعلمه منه بما يوضح كيف كان يجرى التدريس ، قال : « ولما دخل بغداد كان بها أبو بشر متى بن يونس الحكيم المشهور ، وهو شيخ كبير ؛ وكان يقرأ الناس عليه فن المنطق وله اذ ذاك صيت عظيم وشهرة وافية ، ويجتمع فى حلقته كل يوم المئون من المشتغلين بالمنطق ، وهو يقرأ كتاب أرسطوطاليس فى المنطق ، ويملى على تلامذته شرحه ، ولم يكن فى ذلك الوقت مثله فى فنه . وكان حسن العبارة فى تآليفه ، لطيف الاشارة ، وكان يستعمل فى تصانيفه البسط والتذليل ، حتى قال بعض علماء هذا الفن : ما أرى أبا نصر الفارابى أخذ طريق تفهيم

المعانى الجزلة بالألفاظ السهلة الا من ابى بشر . وكان ابو نصر يحضر حلقته فى غمار تلامذته ، فأقام ابو نصر كذلك برهة ؛ ثم ارتحل الى مدينة حران وفيها يوحنا بن حيلان الحكيم النصرانى ، فأخذ عنه طرفا من المنطق . ثم انه قفل راجعا الى بغداد وقرا بها علوم الفلسفة ، وتناول جميع كتب أرسطوطاليس ، وتمهر فى استخراج معانيها والوقوف على اغراضه فيها » . من هذا يتضح أن ابا بشر متى بن يونس كان رئيس مدرسة فى بغداد . ولكنه لم يكن هو الذى ابتدعها ، بل تعلم على غيره فى سلسلة متصلة من التعليم الفلسفى .

ولكى نفهم موضع الفارابى فى هذه السلسلة يحسن ان نتتبعها من بدايتها بالاسكندرية ، وذلك عن رواية نقلها ابن ابى اصيبعة فى طبقات الأطباء عن كلام للفارابى فى ظهور الفلسفة ، وانه كان زمان اليونانيين حتى ارسطو ، ثم انتقل الى الاسكندرية فى حكم البطالسة حتى كليوبطرة ، ولما استولى الرومان على مصر ، استنسخوا الكتب الموجودة بالأسكندرية وأصبح للفلسفة موضعان للتعليم احدهما فى روما ، فلما انتصرت النصرانية زالت مدرسة روما وبقيت الاسكندرية ، وانتقل منها التعليم الى انطاكية واستمر بها الى ان بقى « معلم واحد ، فتعلم منه رجلان ، وخرجا ومعهما الكتب ، فكان احدهما من اهل حران والآخر من اهل مرو . فاما الذى من اهل مرو فتعلم منه رجلان :

احدهما ابراهيم المروزى والآخر يوحنا بن حيلان . وتعلم من الحرانى اسماعيـــل الأسقف ، وقويرى ، وسارا الى بغداد ، فتشاغل اسرائيل بالدين ، واخذ قويرى فى التعليم . واما يوحنا بن حيلان فانه تشاغل ايضا بدينه . وانحدر ابراهيم المروزى الى بغداد فأقام بها . وتعلم من المروزى متى بن يونان (اى يونس) ... وقال ابو نصر الفارابى عن نفسه انه تعلم من يوحنا بن حيلان الى آخر كتاب البرهان» .

واذا كنا قد عرفنا طرفا من طـريقة أبى بشر ، فان الغموض يلف شخصية يوحنا بن حيلان . ويبدو ان تأثر الفارابى بأبى بشر كان أعظم . وقيل ان الفارابى كان أصغر سنا من ابى بشر ، ولكنه كان احد ذهنا ، واعذب كلاما . وسبب ذلك ان الفارابى كان يجتمع بأبى بكر بن السراج النحوى ، فيأخـــذ عنه النحو ، ويأخذ عنه ابن السراج المنطق .

ولسنا ندرى الا النزر اليسير عن طريقة الفارابى فى التدريس . ويمكن استخلاص هذه الطريقة من ثبت كتبه الوارد فى طبقات الأطباء لابن ابى أصيبعة . فقد كان الفارابى قصير النفس فى التأليف ، وكتبه تعاليق . ويبدو أنه فى التأليف كان يستغرق زمنا طويلا لأن كتاب آراء أهل المدينة الفاضلة بدأ فى تصنيفه ببغداد « وحمله الى الشام فى آخر سنة ثلاثين وثلثمائة ، وتممه بدمشق فى سنة احدى وثلاثين وثلثمائة ؛ وحرره ، ثم نظر فى النسخة بعد التحرير فأثبت

فيها الأبواب ، ثم سأله بعض الناس أن يجعل له فصولا تدل على قسمة معانيه فعمل الفصول بمصر سنة سبع وثلاثين . . . » ويهمنا فى هذا الخبر أن جماعة من التلاميذ سألوه ان يرتب الكتاب . ولكن من الصعب معرفة أسماء هؤلاء التلاميذ . ويبدو كذلك أن الفارابى كان يضيق بالكتابة ، ويستحسن الاملاء على تلاميذه . من ذلك ان له كتاب « شرح كتاب البرهان لأرسطوطاليس ، على طريق التعليق ، أملاه على ابراهيم بن عدى ، تلميذ له بحلب » . ومن ذلك ايضا كتاب يسميه ابن أبى أصيبعة : « كلام أملاه على سائل سأله عن معنى ذات ومعنى جوهر ، ومعنى طبيعة » .

وأعظم تلاميذه يحيى بن عدى ، المنطقى ، اليه انتهت الرياسة ومعرفة العلوم الحكمية فى وقته ، قرأ على أبى بشر متى ، وعلى أبى نصر الفارابى ؛ وهو نصرانى يعقوبى ، توفى ٣٦٤ هـ . كان مترجما عن السريانية ، ومعظم مؤلفاته فى المنطق . وعن طريق يحيى بن عدى ، تسلسلت المدرسة المنطقية فى بغداد ، فرأسها أبو الخير الحسن بن سوار المعروف بابن الخمار ، ولد ٣٣١ ، فيلسوف وطبيب ، ومنطقى ، وله شروح وتعليقات على أورجانون أرسطو . ثم أبو على عيسى بن اسحاق بن زرعة ، نصرانى يعقوبى ، له ترجمات لبعض كتب أرسطو ، والاسكندرانيين . ثم عبد الله بن الطيب ، تلميذ ابن الخمار ، فيلسوف وطبيب

اشتغل بالبيمارستان العضدى ، جمع بين الطب والفلسفة . شرح ميتافيزيقا ارسطو وكتبه المنطقية ، واتصل بالمراسلة مع معاصره ابن سينا .

لا نود أن نحصى أسماء كل الفلاسفة الذين اشتهروا ببغداد ، وأخذ بعضهم عن بعض ، فهذا أمر يطول ، وفى القدر الذى ذكرناه كفاية لتوضيح مدرسة بغداد الفلسفية ، والتى كانت تقوم على منطق أرسطو وشرح كتبه المختلفة فى الطبيعيات ، والالهيات ، والأخلاق والسياسة ، وتهذيب الكتب الطبية والرياضية المأثورة عن مدرسة الاسكندرية .

ولا غرابة أن يدور المذهب الفلسفى حول آراء الفارابى ، الذى اعترف له بالرياسة فى الفلسفة ، حتى سموه المعلم الثانى . ويمكن تلخيص هذه الآراء فى امور ثلاثة : المنطق ، وتسلسل الوجود بالفيض ، ونظرية الاتصال .

أما المنطق فهو أداة الفكر ، ومعيار النظر ، منزلته من الفلسفة منزلة علم النحو من اللغة ، الا أن النحو يعنى بالألفاظ ، على حين يعنى المنطق بالمعانى . وقد أثر الفارابى فى الفلسفة الاسلامية من جهة المنطق ثلاثة أنواع من التأثير ، الأول حسن صياغة العبارة المنطقية مما يجعلها مقبولة مفهومة ، والثانى العناية بالتحليلات الثانية أى البرهان ، بعد أن كان السابقون لا يتجاوزون التحليلات الأولى أى القياس . والثالث دخول المنطق فى علم الكلام حتى أضحى بعد القرن الخامس الهجرى جزءا من مباحثه .

واما تسلسل الوجود صدورا عن الواحد ، فانها نظرية مزج فيها الفارابى بين « الفلسفتين » أى بين افلاطون وارسطو ، وكذلك افلوطين ، فأصبحت النظرية مستقيمة لا تعتمد على أساسين هما الوجود والواحد ، بل على اساس واحد مداره أن الوجود هو الواحد ، وعن الموجود الأول صدرت جميع الموجودات « على جهة فيض وجوده لوجود شيء آخر » . صدر عن الموجود الأول العقل الأول ، ثم يصدر عنه العقل الثانى وهكذا الى نهاية العقول العشرة ، والعقل العاشر هو الذى يحكم عالم الأرض ، عالم الكون والفساد ، والعناصر الأربعة . وانما كانت العقول عشرة لأنها تحرك الكواكب والأفلاك ، وهى بحسب علم الفلك اليونانى المتأخر عشرة .

هذه النظرية مشتقة أساسا من الأفلاطونية المحدثة ، وتحل مشكلة المادة القديمة عند ارسطو ، لأن الهيولى فى هذا المذهب متصلة بوحدة وجود مع الموجود الأول . وهذا يتعارض تماما مع الاسلام القائل بالخلق من عدم . وقد راينا ان الكندى كان أقرب الى روح الاسلام ، حين نادى بالخلق ، بل انه يستعمل مصطلحا أدق من معنى الخلق ، وهو الابداع . فلما شاعت فلسفة الفارابى عن طريق مدرسته ، وعن طريق ابن سينا فيما بعد ، لم ينقطع هجوم أهل السنة على الفلاسفة حتى رفع الغزالى لواء الحملة عليهم فى تهافته .

والمقصود بنظرية الاتصال ، اتصال عقولنا بآخر العقول المتسلسلة عن الواحد وهو العقل العاشر . واذا تيسر لنا الاتصال بالعقل الفعال امكن الاطلاع على كل علم بطريق « الفيض » عن الأنوار الالهية . ويتصل الفيلسوف بهذا العقل بطريق « البحث النظرى » ، ويتصل النبى أو الولى بطريق « المخيلة » التى تقبل الالهامات فى الرؤيا الصادقة أو فى اليقظة على هيئة الوحى . وبهذا المسلك وفق الفارابى بين الحكمة والشريعة ، لأن الحقائق الدينية والحقائق الفلسفية كلاهما ثمرة الفيض الالهى اما عن طريق المخيلة أو النظر والتأمل .

٣ ــ مدرسة ابن سينا

مدرسة الفارابى ، وهى مدرسة بغداد ، وقد عرفت بهذا الاسم ، كان معظمها من النصارى ، بدات بأبى بشر متى ويوحنا بن حيلان ، وبلغت أوجها عند الفارابى وتلميذه يحيى بن عدى ، وكانت تعارض مدرسة الكندى معارضة جوهرية ، منهجا وموضوعا .

واذا بمدرسة ابن سينا ، التى ظهرت فى فارس ، تعارض تلك المدرسة وتسـَفـّه آراءها وتفسيراتها وتنتقد رجالها فيما عدا الفارابى . قال ابن سينا فى كتاب المباحثات (انظر ارسطو عند العرب ــ نشر عبد الرحمن بدوى ــ ص ١٢٠ ــ ١٢٢) ما نصه : « والذى ذكره من اختلاف الناس فى امر النفس والعقل ، وتبلدهم فيه ، لا سيما البله النصارى من اهل مدينة السلام » ومدينة السلام هى بغداد . ثم تكلم بعد ذلك عن خلاصة رايه فى النفس والعقل وغير ذلك من المسائل ، وقال ان كتابه الشفاء قضى على تلك الشكوك والتوصل الى حلها . وانه كان قد صنف كتابا اسمه « الانصاف » قسم فيه العلماء الى مشرقيين ــ اى علماء فارس ــ والى مغربيين ــ يريد علماء الشام وبغداد ــ ،

وتقدم بالانصاف بين الخلاف بينهما ، وتكلم فى ذلك الكتاب عن « اثولوجيا » ارسطو ، وعن سهو المفسرين ، ولكن ذلك الكتاب فقِد فى بعض الهزائم ، وكان كما يقول : « يشتمل على تلخيص ضعف البغدادية وتقصيرهم وجهلهم » . ولكنه استثنى المعلم الثانى من البلاهة والجهل .

وتحدث عن الفارابى واعلن رأيه فيه على الرغم من انه حلقة فى سلسلة المدرسة البغدادية كما رأينا من قبل . قال ابن سينا : « واما ابو نصر الفارابى فيجب أن يعظم فيه الاعتقاد ، ولا يجرى مع القوم فى ميدان ، فيكاد أن يكون افضل من سلف من السلف » .

وقد خلّف لنا ابن سينا سيرة حياته بقلمه ، ثم اكملها تلميذه أبو عبيد الجوزجانى ، فتيسر بذلك معرفة كثير من دقائق حياته العلمية ، وطريقته فى التدريس ، وكيف كان ينصب مجلس التعليم . وهو الشيخ الرئيس ، أبو على ، الحسين بن عبد الله بن الحسين بن على ابن سينا ، ولد ٣٧٠ هـ وتوفى ٤٢٨ هـ . والشيخ تدل على الأستاذية ، والرئيس اما لأنه تولى رياسة الوزارة والأغلب انه اقب يدل على انه رئيس الفلاسفة . ابوه من بلخ وانتقل الى بخارى فى أيام الأمير نوح بن منصور ، وتعلم فى بخارى وهو صبى النحو والعربية والقرآن والأدب . وكان ابوه يجتمع فى داره بداعى الاسماعيلية ، فسمع منه حديث النفس والعقل

والفلسفة والهندسة . ثم تعلم حساب الهند من رجل يبيع البقل . وقرأ على الناتلى المتفلسف المنطق والهندسة والفلك ، وتعلم الطب بنفسه ، ورجع الى العلوم الفلسفية فقرأها على نفسه ، وانتهى الى كتاب ما بعد الطبيعة لأرسطو فلم يفهم منه شيئا حتى اشترى كتاب الفارابى فى اغراض كتاب ما بعد الطبيعة فانفتح له مفاليق ذلك الكتاب . وعالج نوح بن منصور فأعجب به ، وأدخله مكتبته فاطلع على نفائسها وحفظ ما فيها عن ظهر قلب . وتنقل فى مدن فارس حتى بلغ جرجان حيث قصده الجوزجانى ، الذى الح عليه أن يهتم بالتصنيف ، ويشتغل الجوزجانى بالضبط .

وفى جرجان اشترى له أبو محمد الشيرازى دارا ، وانزله فيها ، وكان الجوزجانى يختلف اليه فيها ، ولعله كان يستقبل غيره من الطلبة . وهناك أملى على الجوزجانى كتاب المبدا والمعاد ، وأول القانون ، وكثيرا من الرسائل . وانتقل الى الرى واتصل بخدمة مجد الدولة ، ثم خرج الى قزوين ومنها الى همدان ، واتصل بشمس الدولة ، وتقلد له الوزارة .

فى هذه الفترة التى تولى فيها الوزارة ، الف كتابيه المظيمين وهما الشفاء فى الفلسفة ، والقانون فى الطب ، قال الجوزجانى يصف مجلسه : « فكان يجتمع كل ليلة فى داره طلبة العلم ، وكنت اقرأ من الشفاء نوبة ، وكان غيرى يقرأ من القانون نوبة . فاذا فرغنا حضر المغنون على اختلاف

طبقاتهم ، وهيىء مجلس الشراب بآلاته . وكان التدريس بالليل لعدم الفراغ بالنهار خدمة للأمير » وكان من عادة ابن سينا الاملاء فى الأغلب ، وفى بعض الأحيان كان يكتب نسخة فى الموضوع الذى يلتمسه السائل .

ولما كثر تلاميذه ، وذاع صيته ، « رسم الأمير علاء الدولة ليالى الجمعات مجلس النظر بين يديه ، فحضره سائر العلماء على اختلاف طبقاتهم ، والشيخ فى جملتهم ، فما كان يطاق فى شيء من العلوم » .

ولم يذكر الجوزجانى وهو يدون سيرته أى اسم من تلاميذه ، وبخاصة تلميذه أبو الحسن بهمنيار الذى لازم الشيخ الرئيس فى مجلس تدريسه أثناء توليه الوزارة لشمس الدولة . وقدصف لنا مجلسه وصفا أدق قال : « حضرت أنا وجماعة من تلامذة شيخنا الرئيس بكرة سبت مجلس درسه الشريف . فاتفق أن ظهر منا فى ذلك اليوم فتور عن ادراك ما كان يحققه الشيخ ، فقال لنا : كأنكم صرفتم بارحتكم فى التعطيل ! فقلنا : نعم ، كنا أمس مع جمع من الرفقة فى نزهة ، فلم يتيسر لنا مطالعة الدرس ، ومراجعة ما كنا فيه . فلما سمع ذلك الشيخ تنفس الصعداء وفاضت عيناه بالدموع ، وقال : انما أسفى على أن اللاعب بالحبال قد يبلغ أمره فى لعبه الذى هو من الملكات الجسمانية الى حيث تتحير فى غرابة علمه عقول الف الف عاقل . ولكنكم لما لم يكن عندكم للحكم والمعارف الحقة مقدار ومنزلة ، آثرتم

البطالة واللهو على اكتساب العلم والفضيلة ، فلم تقدروا على أن تنزلوا الملكة الروحانية من انفسكم منزلة يتحير فيها جهلة الزمان » . وتوفى بهمنيار سنة ٤٥٨ هجرية ، واهم ما ألفه من الكتب « التحصيل » يشرح فيه فلسفة ابن سينا .

ومن تلامذة بهمنيار ، أبو العباس اللوكرى ، كان عالما باجزاء علوم الحكمة دقيقها وجليلها ، وعنه انتشرت علوم الحكمة في خراسان . ثم تتلمذ له أفضل الدين الفيلانى ، واخذ عن الفيلانى صدر الدين السرخسى توفى ٥٤٥ هجرية ، واخذ عن السرخسى فريد الدين داماد النيسابورى ، وهذا الاخير أستاذ نصر الدين الطوسى ، آخر تلاميذ هذه المدرسة السينوية ، وشارح كتاب الاشارات للشيخ الرئيس ، ومجدد التعليم الفلسفى والرياضى ، وصاحب حلقة جمعت كثيرا من طلبة الفلسفة والعلوم الهندسية والعقلية ، توفى ٦٧٢ هجرية ، وتمتد مدرسة الطوسى حتى تبلغ ذروتها عند ميرداماد (١٠٤١ هـ .) فى أصفهان وتلامذته .

فما هى تعاليم المدرسة السينوية ؟

الحق أنها امتداد لآراء الفارابى ، الا أن ابن سينا كان أوسع عبارة واكثر شرحا . ولقد كان طبيبا أكثر منه فيلسوفا ، وكان كتابه القانون فى الطب المرجع فى أوربا اللاتينية حتى أوائل القرن الثامن عشر . وقد تأثرت فلسفته بطبه فى اصطناع المنهج التجريبى الدقيق . أما فى

الفلسفة فان الشفاء يعد موسوعة فلسفية تشمل المنطق ، والطبيعيات ، والرياضيات ، والالهيات ، بحسب ما رتبه ارسطو ، أو بحسب الفلسفة المشائية ، فهو يحذو حذو المعلم الأول وشراحه مع التأليف بين الآراء المختلفة ، والتوفيق بينها . وأثره فى المنطق لا ينكر ، ولا شك أنه مسئول عن اذاعة المنطق بحالته الراهنة فى العالم العربى ، حتى ان كتاب البصائر النصيرية فى علم المنطق ، والذى حققه ونشره الأستاذ الامام محمد عبده ، وكان يقوم بتدريسه ، يعد تلخيصا أمينا لآراء الشيخ الرئيس .

وأثره فى الالهيات لا يقل عن أثره فى المنطق . والمقصود بالالهيات ، أو العلم الالهى ، ما نسميه اليوم بالميتافيزيقا . تحدث فيه عن الواجب ، أو واجب الوجود ، وعن تسلسل الموجودات عن الواجب ، وعن العلل . فواجب الوجود هو الموجود الذى متى فرض غير موجود عرض منه محال . وممكن الوجود هو الذى متى فرض غير موجود أو موجود لم يعرض منه محال . وقد مر بنا أن الكندى كان يصف الله بأنه الحق ، وأن الفارابى كان يصفه بأنه الواحد ، وهنا نرى نظرة ابن سينا وجودية ومنطقية ، فالله هو واجب الوجود لذاته . والواجب مفهوم منطقى يقابل المستحيل ويتوسط الممكن بينهما . والموجود هو حجر الزاوية فى الفلسفة المشائية ، على حين أن الواحد كما رأينا فوق الوجود فى فلسفة أفلوطين .

اى أن الفرق بين المعلم الثانى والشـــيخ الرئيس أن الفارابى يجنح الى الأفلاطونيـة على حين يميل ابن سينا الى المشائية . وليس هذا هو الفرق الوحيد بين الحكيمين وبين المدرستين ، لأن ابن سينا أصطنع فى آخر حياته فلسفة اخرى خلاف المشائية التى بسطها فى الشفاء وفى النجاة ، هى التى يســميها الفلســـفة المشرقية ، كما تتمثــل فى الاشارات . والفلسفة المشرقية اشراقية ، صوفية ، متأثرة بالمشرق فى فارس .

وقد فطن الغزالى (٤٥٠ – ٥٠١ هجرية) لما فى آراء ابن سينا من خطر على الاسلام ، فكتب « تهافت الفلاسفة » يكفرهم فى عشرين مسألة ، على رأسها القول بقدم العالم ، وعدم علم الله بالجزئيات ، ونفى المعاد . ولم يستطع ابن رشد فى « تهافت التهافت » أن يقنع الجمهور بعدم صحة هذه التهم ، وانتهى الأمر بالفلسفة الى الانزواء ، ودخلت فى مباحث علم الكلام الذى أصبح يسمى علم التوحيد .

***

أشرنا الى أن الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده جدد مدرسة ابن سينا ، فاشتغل بالمنطق ورجع الى كتبه القديمة كما أنه فى « رسالة التوحيد » سلك مسلك الشيخ الرئيس فى اثبات « الواجب » . ولكن محمد عبده لم يكن ملخصا لابن سينا أو شارحا لآرائه ، بل كان صاحب مدرسة فكرية

تدعو ألى تجديد ألنظر الدينى بالعودة ألى الاسلام فى منابعه الأولى ، والى اصلاح المجتمع عن طريق اصـــلاح الدين والأخلاق والفكر ، والخروج على التقليد والجمود ، والى تحكيم العقل والفطرة السليمة . وكان محمد عبده قد اخذ هذا الاتجاه الحر الجديد من جمال الدين الأفغانى ، الذى يعد بحق رئيس المدرسة .

واخذ عن محمـــد عبده مصطفى عبد الرازق ، الذى استطاع أن ينشر تعاليمه الفلسفية فى الجامعة المصرية حين عين للتدريس فيها ســـنة ١٩٢٧ ، وعندئذ أصبح تعليم الفلسفة موجودا فى مدرسة ثابتة ويدرس من فوق منبر جامعى . وخلاصة رأى الشيخ مصطفى عبد الرازق أن المسلمين كانت لهم فلسفة أصيلة لا هى يونانية ، ولا هى فارسية وهندية ، ويمكن التماس هذه الفلسفة فى أصول الفقه . وهذه النظرية ليست جديدة مبتكرة كل الابتكار ، لأن كثيرا من المفكرين فى الاســـلام لم تنقطع معارضـــتهم للفلسفة ، وبخاصة للمنطق باعتبار أنه أداة البحث فيها . ولابن تيمية كتاب هام فى نقد المنطق اليونانى .

ولكن تيارات العصر الحديث لم تكن تسمح بالعزلة عن الأفكار المعاصرة ، وعن الفلسفات الأوربية ألتى نشأت فى أوربا منذ القرن الســـابع عشر على يد ديكارت فى فرنسا وبيكون فى انجلترا ، ثم فى القرن الثامن عشر على يد كانط فى المانيا . فكان لا بد للفلسفة العربية المعاصرة أن تأخذ فى

الاعتبار هذه الفلسفات الوافدة من الغرب ، والعمل على التوفيق بينها وبين تراثنا الفلسفى الموروث .

وكاتب هذه السطور يعتز بأنه كان تلميذا لمصطفى عبد الرازق بالجامعة المصرية ، قرانا عليه البصائر النصيرية فى المنطق ، ولباب الاشارات لابن سينا فى محاضراته . ولازمته بعد ذلك طول حياته ، وعليه قمت بتحضير رسالتى ، ثم انتقلت الى التعليم بالجامعة متابعا روح المدرسة العقلية الحرة التى بدأها جمال الدين ، ثم محمد عبده ، ثم مصطفى عبد الرازق .

فهرس

المكتبة الثقـــافية

تحقق اشتراكية الثقافة

صـــدر منها :

١ ـ الثقافة العربيـة أسبق من ثقافة اليونان والعبريين .	للأستاذ عباس محمود العقاد
٢ ـ الاشتراكية والشيوعية . .	للأستاذ على أدهم
٣ ـ الظاهر بيبرس فى القصص الشعبى	للدكتور عبد الحميد يونس
٤ ـ قصة التطور	للدكتور أنور عبد العليم
٥ ـ طب وسحر	للدكتور بول غليونجى
٦ ـ فجر القصة	للأستاذ يحيى حقى
٧ ـ الشرق الفنان	للدكتور زكى نجيب محمود
٨ ـ رمضان	للأستاذ حسن عبد الوهاب
٩ ـ أعلام الصحابة	للأستاذ محمد خالد
١٠ ـ الشرق والاسلام	للأستاذ عبد الرحمن صدقى
١١ ـ المريخ	للدكتور جمال الدين الفنـــدى ، والدكتور محمود خيرى
١٢ ـ فن الشعر	للدكتور محمد مندور
١٣ ـ الاقتصاد السياسى . . .	للأستاذ أحمد محمد عبد الخالق
١٤ ـ الصحافة المصرية . . .	للدكتور عبد اللطيف حمزة
١٥ ـ التخطيط القومى	للدكتور ابراهيم حلمى عبد الرحمن

١٦ ـ اتحادنا فلسفة خلقية . . .	للدكتور ثروت عكاشة
١٧ ـ اشتراكية بلدنا	للأستاذ عبد المنعم الصاوى
١٨ ـ طريق الغد	للأستاذ حسن عباس زكى
١٩ ـ التشريع الاسلامى وأثره فى الفقه الغربى	للدكتور محمد يوسف موسى
٢٠ ـ العبقرية فى الفن	للدكتور مصطفى سويف
٢١ ـ قصة الأرض فى اقليم مصر .	للأستاذ محمد صبيح
٢٢ ـ قصة الذرة	للدكتور اسماعيل بسيونى هزاع
٢٣ ـ صلاح الدين الأيوبى بين شعراء عصره وكتابه . . .	للدكتور أحمد أحمد بدوى
٢٤ ـ الحب الالهى فى التصوف الاسلامى	للدكتور محمد مصطفى حلمى
٢٥ ـ تاريخ الفلك عند العرب . .	للدكتور امام ابراهيم احمد
٢٦ ـ صراع البترول فى العالم العربى	للدكتور أحمد سويلم العمرى
٢٧ ـ القومية العربية	للدكتور أحمد فؤاد الأهوانى
٢٨ ـ القانون والحياة	للدكتور عبد الفتاح عبد الباقى
٢٩ ـ قضية كينيا	للدكتور عبد العزيز كامل
٣٠ ـ الثورة العرابية	للدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى
٣١ ـ فنون التصوير المعاصر . . .	للأستاذ محمد صدقى الجباخنجى
٣٢ ـ الرسول فى بيته	للأستاذ عبد الوهاب حمودة
٣٣ ـ اعلام الصحابة ((المجاهدون)) .	للأستاذ محمد خالد
٣٤ ـ الفنون الشعبية	للأستاذ رشدى صالح
٣٥ ـ اخناتون	للدكتور عبد المنعم أبو بكر
٣٦ ـ الذرة فى خدمة الزراعة . .	للدكتور محمود يوسف الشواربى
٣٧ ـ الفضاء الكونى	للدكتور جمال الدين الفندى
٣٨ ـ طاغور شاعر الحب والسلام . .	للدكتور شكرى محمد عياد

٣٩ ـ قضية الجلاء عن مصر . . . . للدكتور عبد العزيز رفاعى

٤٠ ـ الخضراوات وقيمتها الغذائية والطبية . . . . . . للدكتور عز الدين فراج

٤١ ـ العدالة الاجتماعية . . . للمستشار عبد الرحمن نصير

٤٢ ـ السينما والمجتمع . . . . للأستاذ محمد حلمى سليمان

٤٣ ـ العرب والحضارة الأوربية . . للأستاذ محمد مفيد الشوباشى

٤٤ ـ الأسرة فى المجتمع المصرى القديم للدكتور عبد العزيز صالح

٤٥ ـ صراع على أرض الميعاد . . للأستاذ محمد عطا

٤٦ ـ رواد الوعى الانسانى . . . للدكتور عثمان أمين

٤٧ ـ من الذرة الى الطاقة . . . للدكتور جمال نوح

٤٨ ـ اضواء على قاع البحر . . للدكتور أنور عبد العليم

٤٩ ـ الأزياء الشعبية . . . . للأستاذ سعد الخادم

٥٠ ـ حركات التسلل ضد القومية العربية . . . . . . للدكتور ابراهيم احمد العدوى

٥١ ـ الفلك والحياة . . . . للدكتور عبد الحميد سماحة ، والدكتور عدلى سلامة

٥٢ ـ نظرات فى أدبنا المعاصر . . للدكتور زكى المحاسنى

٥٣ ـ النيل الخالد . . . . . . للدكتور محمد محمود الصياد

٥٤ ـ قصة التفسير . . . . . للأستاذ أحمد الشرباصى

٥٥ ـ القرآن وعلم النفس . . . . للأستاذ عبد الوهاب حمودة

٥٦ ـ جامع السلطان حسن وما حوله للأستاذ حسن عبد الوهاب

٥٧ ـ الأسرة فى المجتمع العربى بين الشريعة الاسلامية والقانون . للأستاذ محمد عبد الفتاح الشهاوى

٥٨ ـ بلاد النوبة . . . . . . للدكتور عبد المنعم ابو بكر

٥٩ ـ غزو الفضاء . . . . . . للدكتور محمد جمال الدين الفندى

٦٠ ـ الشعر الشعبى العربى . . . للدكتور حسين نصار

٦١ ـ التصوير الاسلامى ومدارسه . للدكتور جمال محمد محرز

٦٢ ـ الميكروبات والحياة . . . للدكتور عبد المحسن صالح

٦٣ ـ عالم الافلاك . . . . . للدكتور امام ابراهيم أحمد

٦٤ ـ انتصار مصر فى رشيد . . للدكتور عبد العزيز رفاعى

٦٥ ـ الثورة الاشتراكية « قضايا ومناقشات » . . . . للأستاذ أحمد بهاء الدين

٦٦ ـ الميثاق الوطنى قضايا ومناقشات للأستاذ لطفى الخولى

٦٧ ـ عالم الطير فى مصر . . . للأستاذ أحمد محمد عبد الخالق

٦٨ ـ قصة كوكب . . . . . للدكتور محمد يوسف موسى

٦٩ ـ الفلسفة الاسلامية . . . للدكتور أحمد فؤاد الأهوانى

٧٠ ـ القاهرة القديمة واحياؤها . . للدكتورة سعاد ماهر

٧١ ـ الحكم والأمثال والنصائح عند المصريين القدماء . . . للأستاذ محرم كمال

٧٢ ـ قرطبة فى التاريخ الاسلامى . للأستاذ محمد محمد صبيح والدكتور جودة هلال

٧٣ ـ الوطن فى الأدب العربى . . للأستاذ ابراهيم الابيارى

٧٤ ـ فلسفة الجمال . . . . للدكتورة أميرة حلمى مطر

٧٥ ـ البحر الأحمر والاستعمار . . للدكتور جلال يحيى

٧٦ ـ دورات الحياة . . . . للدكتور عبد المحسن صالح

٧٧ ـ الاسلام والمسلمون فى القارة الأمريكية . . . . . . للدكتور محمد يوسف الشواربى

٧٨ ـ الصحافة والمجتمع . . . للدكتور عبد اللطيف حمزة

٧٩ ـ الوراثة . . . . . . للدكتور عبد الحافظ حلمى

٨٠ ـ الفن الاسلامى فى العصر الأيوبى للدكتور محمد عبد العزيز

٨١ ـ ساعات حرجة فى حياة الرسول	للاستاذ عبد الوهاب حمودة
٨٢ ـ صور من الحياة	للدكتور مصطفى عبد العزيز
٨٣ ـ حياد فلسفى	للدكتور يحيى هويدى
٨٤ ـ سلوك الحيوان	للدكتور احمد حماد الحسينى
٨٥ ـ أيام فى الاسلام	للاستاذ أحمد الشرباصى
٨٦ ـ تعمير الصحارى	للدكتور عز الدين فراج
٨٧ ـ سكان الكواكب	للدكتور امام ابراهيم أحمد
٨٨ ـ العرب والتتار	للدكتور ابراهيم أحمد العدوى
٨٩ ـ قصة المعادن الثمينة . . .	للدكتور أنور عبد الواحد
٩٠ ـ أضواء على المجتمع العربى .	للدكتور صلاح الدين عبد الوهاب
٩١ ـ قصر الحمراء	للدكتور محمد عبد العزيز مرزوق
٩٢ ـ الصراع الأدبى بين العرب والعجم	للدكتور محمد نبيه حجاب
٩٣ ـ حرب الانسان ضد الجوع وسوء التغذية	للدكتور محمد عبد الله العربى
٩٤ ـ ثروتنا المعدنية	للدكتور محمد فهيم
٩٥ ـ تصويرنا الشعبى خلال العصور	للاستاذ سعد الخادم
٩٦ ـ منشآتنا المائية عبر التاريخ .	للاستاذ عبد الرحمن عبد التواب
٩٧ ـ الشمس والحياة	للدكتور محمد خيرى على
٩٨ ـ الفنون والقومية العربية . .	للاستاذ محمد صدقى الجباخنجى
٩٩ ـ اقلام ثائرة	للاستاذ حسن الشيخ
١٠٠ ـ قصة الحياة ونشأتها على الأرض	للدكتور أنور عبد العليم
١٠١ ـ أضواء على السير الشعبية .	للاستاذ فاروق خورشيد
١٠٢ ـ طبائع النحل	للدكتور محمد رشاد الطوبى
١٠٣ ـ النقود العربية ((ماضيها وحاضرها))	للدكتور عبد الرحمن فهمى

١٠٤ـ	جوائز الادب العالمية « مثل من جائزة نوبل »	للأستاذ عباس محمود العقاد
١٠٥ـ	الغذاء فيه الداء وفيه الدواء .	للأستاذ حسن عبد السلام
١٠٦ـ	القصة العربية القديمة . .	للأستاذ محمد مفيد الشوباشى
١٠٧ـ	القنبلة النافعة	للدكتور محمد فتحى عبد الوهاب
١٠٨ـ	الأحجار الكريمة فى الفن والتاريخ	للدكتور عبد الرحمن زكى
١٠٩ـ	الغلاف الهوائى	للدكتور محمد جمال الدين الفندى
١١٠ـ	الأدب والحياة فى المجتمع المصرى المعاصر . . .	للدكتور ماهر حسن فهمى
١١١ـ	الوان من الفن الشعبى . .	للأستاذ محمد فهمى عبد اللطيف
١١٢ـ	الفطريات والحياة	للدكتور عبد المحسن صالح
١١٣ـ	السد العالى « التنمية الاقتصادية »	للدكتور يوسف أبو الحجاج
١١٤ـ	الشعر بين الجمود والتطور . .	للأستاذ العوضى الوكيل
١١٥ـ	التفرقة العنصرية	للدكتور أحمد سويلم العمرى
١١٦ـ	صراع مع الميكروب . . .	للدكتور محمد رشاد الطوبى
١١٧ـ	الاصلاح الزراعى والميثاق . .	للأستاذ محمد عبد المجيد مرعى
١١٨ـ	أضواء جديدة على الحروب الصليبية	للدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور
١١٩ـ	الأمم المتحدة وممارسة نظامها .	للدكتور سليمان محمود سليمان
١٢٠ـ	أسرار المخلوقات المضيئة . .	للدكتور عبد المحسن صالح
١٢١ـ	التاريخ والسير	للدكتور حسين فوزى
١٢٢ـ	تطور المجتمع الدولى . . .	للدكتور يحيى الجمل
١٢٣ـ	الاستعمار والتحرير فى العالم العربى	للدكتور جمال حمدان
١٢٤ـ	الآثار المصرية فى الأدب العربى .	للدكتور أحمد أحمد بدوى

١٢٥ـ الاسلام والطب	للاستاذ محمد عبد الحميد البوشى
١٢٦ـ الحلى فى التاريخ والفن . .	للدكتور عبد الرحمن زكى
١٢٧ـ نافذة على الكون	للدكتور امام ابراهيم أحمد
١٢٨ـ الفلاح فى الأدب العربى . .	للأستاذ محمد عبد الغنى حسن
١٢٩ـ ثروتنا المائية	للدكتور أنور عبد العليم
١٣٠ـ التفكير عند الانسان . . .	للدكتور أحمد فائق
١٣١ـ رحلات الحيوان والطيور . .	للدكتور مريد ينى حنا
١٣٢ـ النيل فى عصر المماليك . . .	للدكتور محمود رزق سليم
١٣٣ـ الفلسفة فى الميثاق . . .	للدكتور يحيى هويدى
١٣٤ـ ريتشارد فاجنر	للدكتور فؤاد زكريا
١٣٥ـ قصة الألمونيوم	للدكتور أنور محمود عبد الواحد
١٣٦ـ المدارس الفلسفية . . .	للدكتور أحمد فؤاد الأهوانى

« الثمن قرشان »



دار مصر للطباعة

٣٧ شارع كامل صدقى



المكتبة الثقافية

- أول مجموعة من نوعها تحقق اشتراكية الثقافة
- تيسر لكل قارئ أن يقيم في بيته مكتبة جامعة تحوي جميع ألوان المعرفة بأقلام أساتذة ومتخصصين وبقرشين لكل كتاب
- تصدر مرتين كل شهر في أوله وفي منتصفه

الكتاب القادم

الرسول

لمحات من حياته ولفحات من هديه

للدكتور عبد الحليم محمود

١٥ يوليو ١٩٦٥

الثمن ٢

مكتبة مصر